رواية

الموت عمل شاق

خالد خليفة





نوفل

https://www.facebook.com/1New.Library/

https://telegram.me/NewLibrary

https://twitter.com/Libraryiraq




مكتبة
الفكر الجديد

رواية

الموت عمل شاقّ

خالد خليفة


نوفل



جميع الحقوق محفوظة.

صدرت عام 2016 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2016
سنّ الفيل، حرج تابت، بناية فورِست
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

لا يجوز نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب في أيّ شكل من الأشكال أو بأيّ وسيلة من الوسائل – سواء التصويرية أو الإلكترونية أو الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها – من دون الحصول على إذن خطّي مسبق من الناشر.

صورة الغلاف: **Lyn Randle/ Trevillion Images ©**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
متابعة النشر: **رنا حايك**
طباعة: **53Dots**

ر.د.م.ك.: 978-614-438-505-0



الفصل الأوّل

لو أنّك أكياس كمّون

قبل موته بساعتين، نظر عبد اللطيف السالم بما بقي له من قوّة في عيني ابنه بلبل، كأنّه ينتزع منه وعداً مؤكّداً، ثمّ أعاد طلب دفنه في مقبرة قريته العنابيّة. عظامه سترتاح بعد زمن طويل قرب رماد أخته ليلى كما قال، وكاد يضيف، قرب رائحتها، لكنّه لم يكن متأكّداً من احتفاظ الموتى برائحتهم نفسها بعد أربعين عاماً. اعتبر كلماته القليلة وصيّة أخيرة، ولم يضِفْ أيّ كلمات تجعل تفسيرها ملتبساً. قرّر الصمت في ساعاته الأخيرة، أغلق عينيه متجاهلاً الأشخاص المحيطين به، وغرق في وحدته مبتسماً. استعاد صورة نيفين، ابتسامتها، رائحتها، جسدها العاري الملفوف في عباءة سوداء وهي تحاول الطيران كفراشة، تذكّر أنّ عينيه التمعتا في تلك اللحظة، قلبه دقّ بقوة وركبتيه ارتجفتا، حملها إلى السرير وقبّلها بنهم، وقبل استعادته كلّ لحظات ليلة الأسرار الخالدة كما سمّياها، مات.

بلبل في لحظة شجاعة نادرة، وتحت تأثير كلمات الفراق الأخيرة وعينيْ أبيه الغائمتين الحزينتين، تصرّف بثبات ودون خوف، ووعد أباه بتنفيذ وصيّته الّتي كانت برغم وضوحها وبساطتها مهمّة شاقّة. من الطبيعي لرجل كلّ ما فيه يدعو للرثاء، ويعرف أنّه سيموت



خلال ساعات قليلة، أن يكون ضعيفاً، ويطلب أشياء صعبة التحقّق، كما من الطبيعي لرجل هشّ مثل بلبل ألّا يخذله. اللحظة الأخيرة دوماً عاطفيّة، غالباً غير مناسبة للتفكير، لا مجال فيها لمحاكمات عقلانيّة، ويتكثّف فيها الزمن. مراجعة الماضي وتصفية الحسابات تحتاج إلى هدوء وتأمّل طويلين لا يمارسهما المقبلون بعد لحظات على الموت، يرمون على عجل بأحمالهم، ويمضون لعبور البرزخ إلى الضفّة الأخرى الّتي لا قيمة للوقت فيها.

شعر بلبل بالندم لأنّه لم يكن حازماً، كان يجب عليه أن يخبر أباه بصعوبة تنفيذ هذه الوصيّة في مثل هذه الأيّام، فالقتلى في كلّ مكان، يُدفنون في مقابر جماعيّة، ودون تدقيق في هويّاتهم. مراسم العزاء حتّى بالنسبة للعائلات الغنيّة اختُصرت إلى ساعات قليلة، لم يعد الموت كرنفالاً يستحقّ إعلان النفوذ. قليل من الورد، معزّون قلائل يتثاءبون في صالة شبه فارغة لمدّة ساعتين، مقرئ يتلو سوراً قليلة من القرآن بصوت منخفض، وينتهي كلّ شيء.

فكّر بلبل، العزاء الصامت يزيل رهبة الميت، للمرّة الأولى تساوى الجميع في الموت، لم تعد المراسم تعني شيئاً، الفقراء والأغنياء، الضبّاط الكبار والجنود الفقراء في الجيش النظامي، قادة الكتائب المسلّحة والمقاتلون والموتى العابرون ومجهولو الهويّة، يُدفنون بمواكب هزيلة تثير الشفقة. لم يعد الموت فعلاً يستدعي الانفعال، بل أصبح خلاصاً يثير حسد الأحياء.

بالنسبة إلى بلبل، كانت القصّة مختلفة تماماً، جثمان أبيه عبء ثقيل، في لحظة عاطفيّة خاطئة وعده بدفنه في قبر عمّته ليلى الّتي لا يعرفها. كان يظنّ أنّه سيطلب تنفيذ إجراءات تحفظ حقوق نيفين، زوجته الجديدة، في منزل العائلة الّذي دمّرته غارة جوّية



بالكامل ما عدا غرفة النوم، حيث قضى أبوه أيّام حبّه الأخيرة مع نيفين قبل خروجه من بلدته «س» بمساعدة مقاتلي المعارضة.

مشهد مؤثّر لن ينساه بلبل طوال حياته... أتوا به نظيفاً، من الواضح أنّهم اعتنوا برفيقهم، الّذي اختار البقاء معهم برغم الحصار المفروض على البلدة منذ أكثر من ثلاث سنوات. ودّعوه بتعاطف كبير، قبّلوه بحرارة، أدّوا تحيّة رفاقيّة، أوصوا بلبل برعايته بطريقة لائقة، وغادروا بلمح البصر عبر طريق فرعي محروس جيّداً، ومفتوح على بساتين تودي إلى البلدة. كانت عيناه تشيّعانهم للمرّة الأخيرة، حاول رفع يده ليلوّح لهم لكنّه لم يستطع، كان منهكاً وجائعاً، فقد أكثر من نصف وزنه، منذ أشهر لم يأكل وجبة طعام كاملة، ككلّ المحاصرين في البلدة.

كان جسده ورديّاً ومسجّى على نقالة معدنيّة في المشفى العمومي. قال الطبيب لبلبل: يموت الكثيرون كلّ يوم، يجب أن تكون سعيداً لأنّه وصل إلى الشيخوخة. بلبل لم يكن سعيداً كما رغب الطبيب لكنّه تفهّم قصده، شعر بضيق شديد من هذه الورطة، شوارع المدينة مقفرة منذ الثامنة مساءً، ويجب نقل الجثّة قبل منتصف نهار الغد، لا يمكن إشغال المشرحة لوقت طويل، الكثير من جثث الجنود تصل في أوقات الفجر من أطراف دمشق، حيث المعارك لا تتوقف.

خرج بلبل من المشفى والساعة تقترب من الثانية ليلاً، فكّر بأنّ أباه يخصّ عائلة كاملة، وعلى جميع أفرادها تنفيذ وصيّته الأخيرة. بحث عن سيّارة تاكسي توصله إلى منزل أخيه حسين بعد فشل محاولات اتّصاله الحثيثة به منذ يوم أمس. فكّر بإرسال رسالة موبايل، لكنّ الإبلاغ بموت أب عبر رسالة موبايل فيه احتقار كبير، يجب قول ذلك وجهاً لوجه وتقاسم المصاب والألم.



أشار إليه جنديّ من حرّاس المشفى بالانعطاف نحو كراج درعا القريب، هناك سيجد تاكسي. قرّر عدم التفكير بصوت الرصاص القريب، حثّ خطاه، وضع يديه في جيبيه وتخلّى عن خوفه، السير في هذه الليلة الشتائيّة خطر إلى درجة كبيرة، الدوريّات لا تتوقف، الشوارع تعجّ بمسلحين مجهولي الهويّة، الكهرباء مقطوعة في أغلب الأحياء، كتل الكونكريت المرفوعة أمام الفروع الأمنيّة تحتلّ أغلب الطرقات، لا يستطيع أحد، إن لم يكن من سكّان المنطقة، معرفة الممرّات المسموح بالسير فيها والممرّات الممنوعة. رأى من بعيد بضعة رجال يتحلّقون حول تنكة مفتوحة فيها عيدان حطب مشتعلة، فكّر بأنّهم على الأغلب سائقون تقطّعت بهم السبل، ينتظرون الفجر ليغادروا إلى منازلهم. كان في الرمق الأخير من شجاعته، حين وجد سائق تاكسي يستمع إلى أغنية لأمّ كلثوم باسترخاء كامل، تفاهم معه بسرعة، ولم يناقشه في الأجرة.

صمت أوّل الطريق، وبعد دقائق أراد طرد خوفه، أخبره عن موت أبيه بشكل طبيعي منذ ساعة في المشفى، ضحك السائق وأخبره أنّ ثلاثةً من إخوته وأولادهم ماتوا الشهر الماضي في القصف، صمت الاثنان، لم يعد الحديث متكافئاً، كان ينتظر التعاطف من السائق الّذي كان كريماً معه، ولم يتركه حتى اطمأنّ عليه. فتح حسين الباب، وحين رأى بلبل واقفاً أمامه في مثل هذا الوقت فهم كلّ شيء. عانق أخاه بحميميّة، قاده إلى الداخل وقدّم له الشاي، طلب منه غسل وجهه، ووعده بتدبّر أمر كلّ ما بقي من أشياء، الكفن ومعاملات الدفن وإحضار أخته فاطمة.

شعر بلبل بنفسه أكثر خفّة وشجاعة، انزاح همّ ثقيل عن كاهله، نسي تجاهل حسين لوجود أبيه في المشفى، المهمّ أنّه لم يتابع الاختفاء ويخذله. يثق بلبل بقدرة أخيه على التصرّف بطريقة جيّدة



في مثل هذه المواقف، فقد تنقّل حسين بين مهن عديدة أكسبته خبرة في معاملات الدولة، ولديه الكثير من المعارف في أمكنة عديدة. دون تلكّؤ فكّ حسين كراسي الميكرو باص وأعاد تركيبها بشكل صندوق مفتوح، قال: سنمدّد الجثمان على المقعد الجانبي، المساحة جيّدة لسفر مريح للجميع، كان يقصد بلبل وأختهما، وإذا أحبّ صهرهما مرافقتهما فلن يضايقهما وجوده، لكنّهما سرعان ما استبعدا ذلك. لم يعد الناس يشعرون بضرورة القيام بواجب تجاه رجل سيقطع جثمانه مئات الكيلومترات للوصول إلى مثواه الأخير.

في السابعة صباحاً أنهى حسين كلّ ترتيبات السفر، أحضر أخته من بيتها، أزال لوحات الميكرو باص الّذي يعمل عليه كسيرفيس على خط جرمانا، وبمساعدة صديقه كهربائيّ السيّارات ارتجل إشارة سيّارة إسعاف مع زمّورها، اشترى علبة ملطّف جو قدّر أنّه سيحتاج إليها في سفره الطويل، ولم ينسَ الاتصال بأحد أصدقائه لتأمين أربعة قوالب ثلج كبيرة. برغم صعوبة الطلبات استيقظ أصدقاؤه قبل الفجر، قدّموا له التعازي، وساعدوه في ترتيب أمور سفرهم. كلّ ما بقي لتحرّكهم توقيع مدير المشفى الّذي لن يأتي قبل التاسعة صباحاً. انتظروا أمام باب المشفى، لكنّ مدير المشرحة طلب منهم حمل جثمان والدهم إلى السيّارة فوراً، فدفعة جثث جديدة تنتظر على البلاط البارد والبرّادات كانت مكتظّة أصلاً.

لم يجرؤ بلبل على مرافقة حسين الّذي دخل إلى المشرحة. في الممرّات وجوه قاتمة وحزينة لرجال ونساء ينتظرون تسلّم جثث أحبّتهم، أشار عليه ممرّض ليبحث في الجانب الجنوبي من المشرحة. كاد يصاب بالتقيّؤ وهو يفتح الصناديق المكتظة. أخيراً وجد جثّة أبيه النضرة بعد فقده الأمل، مئات الجثث تضيع في هذه الفوضى وتُنسى، من الواضح أنّه لم يمت منذ وقت طويل. دفع ثلاثة آلاف



ليرة لمسؤول المشرحة مقابل سماحه لممرّض بمساعدته في تغسيله وتكفينه في حمّام الموتى القذر الّذي لم يعد يكترث أحد بنظافته. كان المشهد في المشرحة مرعباً، ضبّاط يسيرون في الممرّات، يتحدّثون بغضب ويشتمون مسلّحي المعارضة بكلمات قاسية، عساكر بعتادهم الحربيّ الكامل يجولون دون هدف، تفوحُ من جلودهم رائحة المعارك، أتوا برفاقهم جرحى أو قتلى، وكان التلكّؤ فرصة لهربهم أو تمهّلهم في العودة إلى حيث ينتظرهم الموت. كلّ شيء يبدو قريباً من الموت في هذه الفوضى.

رتّب حسين وضع جثّة أبيه في المقعد الجانبي، كي لا يراه ويشتّت انتباهه حين ينظر في المرآة، طلب من فاطمة السكوت رغم أنّها لم تقل أيّ شيء، فارتفع صوت بكائها أكثر. منذ طفولتهما يحبّ حسين أن يأمرها، وفاطمة تطيعه دون نقاش، تلبية طلب الأخ تشعرها بالتوازن والحماية. غضب حسين من بلبل حين شاهده مستنداً إلى جدار بعيد يدخّن بصمت كأنّه لا شيء يعنيه. أغلق باب الميكرو، وعاد للانتظار قرب باب مكتب مدير المشفى، يجب توقيع شهادة الوفاة قبل انتهاء الدوام الرسمي. لم يكن في مزاج رائق لتبادل القصص مع المنتظرين. فضوله لم يمنعه من سؤال امرأة عن موعد حضور المدير، أشارت بيدها إلى عدم معرفتها، أشاحت بوجهها عنه، ولم يحاول حسين مرّة أخرى التحدّث إلى أحد، رغم كراهيته للانتظار الصامت، واعتقاده بأن الكلام يخفّف من الألم. شعر بتوتّر كبير وغضب مكتوم في عيون أصحاب الحاجات الّذين اكتظّ بهم الممرّ. في التاسعة صباحاً وقّع المدير الورقة. بسرعة طلب حسين من بلبل الصعود إلى السيّارة، كما طلب بحزم من فاطمة تغطية الجثّة بالبطانيات الّتي أحضرها من بيته، والصمت.



أخبرهما حسين أنّ إخراج الجثّة كلّفهم عشرة آلاف ليرة، مضيفاً أنّ كلّ التفاصيل مكتوبة في دفتر الحسابات الصغير. لم ينتظر تعليقهما، وفكّر بأقصر الطرق للخروج من دمشق. في مثل هذا الوقت من الصباح تكون الطرق مزدحمة، الحواجز كثيرة ومكتظّة أيضاً، والانتظار قد يطول ساعات، قدّر كسائق ميكرو باص يعمل طوال النهار وسط الزحام. طريق ساحة العباسيّين سيكون الأفضل رغم سمعة الحواجز السيّئة في هذه المنطقة. قال لنفسه، مجرّد التفكير في عبور طريق السبع بحرات في قلب المدينة سيكون كارثة حقيقيّة.

اتّخذ قرار الخروج من دمشق عبر ساحة العباسيّين، حاول اللحاق بسيّارة إسعاف، الحاجز الأوّل لم يسمح له بإكمال الطريق، لكنّه كسب بعض المسافة، زمّور الإسعاف لم يساعده في شيء، لم يفسح أحد له الطريق. وسط هذه الحشود والفوضى، فكّر حسين بأنّ مرور جنازة كان يثير تعاطف الجميع أيّام السلم، السيّارات تفسح الطريق، المارّة يتوقفون وفي عيونهم تعاطف حقيقي، لكن في الحرب مرور جنازة حدث عادي لا يثير أيّ شيء سوى حسد الأحياء الّذين تحوّلت حياتهم إلى انتظار مؤلم للموت.

فوجئ برتل سيّارات إسعاف في طريقها إلى خارج المدينة، داخلها جنود يرافقون توابيت، يمكن رؤيتهم من النافذة الصغيرة، حاول حسين الاندساس وسطهم لكنّ صرخة غاضبة وتلقيم بارودة من أحد الجنود الغاضبين أعاداه إلى صفّ السيّارات العاديّة. حين وصلت سيّارة الإسعاف الأخيرة في الرتل إلى محاذاته تمهّلت، مدّ جنديّ رأسه من نافذتها، بصق عليه بقوّة وشتمه، نظر حسين إلى البصقة الّتي بلّلت ذراعه وكظم غيظه، تمنّى البكاء في هذه اللحظة. صمت بلبل وأشاح بوجهه بعيداً كي لا يزيد من إحراج أخيه المهان،



لم تعد فاطمة راغبة في البكاء، فوجئت بجفاف دمعها، أجّلت التعبير عن حزنها وفقدانها إلى الدفن، اللحظة الأكثر حرارة في وداع ميت.

كان حسين منذ طفولته يحفظ عن ظهر قلب الكثير من صفحات روزنامات رخيصة تنشرها جمعيّات إسلاميّة خيريّة، تضمّ أقوالاً مأثورة لمشاهير وحكماً وآيات قرآنيّة وأحاديث نبويّة، يستخدمها في حديثه اليومي، ليعطي انطباعاً لمستمعه بسعة اطّلاعه. كان يؤمن بأنّه لم يُخلق ليعيش على الهامش كرجل مستمع، لكنّه في هذه اللحظة وهو ينظر إلى ساحة العباسيّين المزدحمة بطوفان السيّارات، شعر بضعف رهيب، حين لم يستطع إيجاد حكمة مناسبة تكسر حدّة الصمت المهيمن على أخيه بلبل وأخته فاطمة. يريد لهما نسيان البصقة، حاول تذكّر أمثال تتحدّث عن الموت ولم يجد سوى «الحيّ أبقى من الميت». لم يكن يعجبه هذا المثل لكثرة ما يتداوله الجبناء، واليوم قد يكون الأمر مختلفاً والميت هو الـ«أبقى» من الحيّ. تابع تفكيره بأنّهم كلهم سيموتون في وقت ليس ببعيد، هذه الفكرة منحته شجاعة استثنائيّة خلال السنوات الأربع الماضية، زادت من صبره اليومي، واحتمال إهانات الجنود وعناصر المخابرات على الحواجز أثناء عمله، ينظر إليهم على أنّهم سيموتون اليوم أو بعد غد وعلى أبعد تقدير في الشهور المقبلة، لن يعودوا إلى أحبّتهم. كابوس ثقيل لكنّه حقيقي يشعر الجميع بوطأته، كلّ سكان المدينة ينظر بعضهم إلى بعض كموتى مقبلين. هذه المشاعر والنظرات تخفّف من انفعال الجميع وغضبهم.

يقترب الميكروباص ببطء شديد وسط طوفان مئات السيّارات في محيط ساحة العباسيّين، لاحت من بعيد ثلاث سيّارات سوزوكي رافعة العلم، في صناديقها رجال كبار السنّ يحاولون فتح الطريق، أحدهم يصرخ بمكبّر صوت محمول بصوت واضح وعالٍ «شهداء،



شهداء، شهداء»، يكمل الرجل الصراخ بعبارات غاضبة «افتح الطريق للشهداء، افتح الطريق للشهداء»، لكن لا أحد يكترث. اقتربت سيّارات السوزوكي من ميكروباص حسين، تحاول الخروج من وسط الزحام. قال حسين إنّهم قادمون من مشفى تشرين العسكري، وأضاف أنّ الفقراء لا يجدون حتّى سيّارة إسعاف تنقلهم إلى المقبرة، بقيت عينا بلبل معلّقتين بالرجل الّذي يحمل مكبّر الصوت حتى غاب عن ناظره.

فكّر بلبل بعدم استطاعته الهروب من الموت، إنّه طوفان رهيب يحيط بالجميع. تذكّر حين كان النظام يبالغ في تشييع قتلاه، على التلفزيون فرقة المراسم الرسميّة تعزف لحن الشهيد، وتوضع على كلّ تابوت باقة ورد كبيرة تحمل اسم القائد العامّ للجيش والقوّات المسلحة الّذي هو الرئيس في الوقت نفسه، وباقة ورد أخرى تحمل اسم وزير الدفاع، وباقة ورد ثالثة تحمل اسم رفاق السلاح في الفرقة أو الإدارة، تعلن المذيعة بصوتها الجهوري الاسم مضيفة صفة الشهيد ورتبته، ويبثّ التلفزيون لقطات للأهل وهم يصرّحون بفخرهم واعتزازهم بشهادة ابنهم الّذي قدّم حياته فداءً للوطن والقائد. دوماً كلمتا الوطن والقائد متلازمتان على التلفزيون. بعد عدّة أشهر، اختفت فرقة المراسم وباقات الورد والعلم، واختفت المذيعات الفخورات باستشهاد أبناء عائلات فقيرة فداءً للوطن والقائد، واختفت هيبة كلمة شهيد. نظر بلبل إلى المدينة الّتي تغيب وتختفي الآن، تذكّر شغف زملائه برواية قصص إهمال البحث عن الجثث ودفنها. كانوا يتحدّثون بغضب عن اكتظاظ المشافي بالموتى. أصبح البحث عن جثّة مهمّة شاقّة، كثيراً ما اضطرّ الأهل بعد إبلاغهم بموت أبنائهم للذهاب إلى مكان المعركة والبحث عن جثثهم الّتي دُفنت في قبر جماعي، أو ضاعت وسط ركام الأبنية المدمّرة، وحديد



هياكل الدبابات والمدافع المحترقة. حتى هذه القصص فقدت بريقها الآن، لم يعد أحد يرويها. أسوأ ما في الحرب تناسل الأفعال الغرائبيّة، وتحوّل القصص المأساويّة إلى حدث عادي. هكذا فكّر بلبل وهو ينظر إلى أبيه، ويشعر بالتميّز، على الأقل الجثّة محاطة برعاية أبنائه الثلاثة، وليست مكشوفة، كاد يخبر حسين وفاطمة عن لحظات أبيه الأخيرة، فوجئ بأنّه لم يفعل. استرخى موقناً بأنّ طريقهم طويل، وسيكون لديهم وقت للحديث عن مآثر الفقيد، واستعادة لحظات الماضي الّتي لم تكن تعيسة على أيّ حال.

انزعج حسين من نفسه، آلاف الحكم والأمثال الّتي حفظها عن ظهر قلب خلال عشرين سنة لم تسعفه للتعبير عن ورطته في هذا الزحام، لكنّه لم يستسلم للنسيان، ردّد بضعة أمثال تعبّر عن موضوعات مختلفة كقلّة الوفاء والأمل وخيانة الأصدقاء، اعتبرها تمريناً جيّداً للذاكرة، قد يحتاج إليها بعد ساعات قليلة، ويجب أن تكون جاهزة وقريبة. تذكّر أبيات أحمد شوقي وردّدها بصوت قويّ وإلقاء فخم «وللحرّية الحمراء بابٌ/بكلّ يدٍ مضرّجة يدقّ»، تذكّر بصعوبة البيت التالي «يعش أبد الدهر بين الحفر». كان يخلط بين قصيدة أحمد شوقي وقصيدة الشابي «إذا الشعب يوماً أراد الحياة/ فلا بدّ أن يستجيب القدر»، وكان يعجبه هذا الخلط ولا يعنيه الخطأ قدر رغبته بالدمج بين القصيدتين رغم اختلاف القوافي، لقد قرأ هذه الأبيات عشرات المرّات على أوراق التقاويم، كانت تعجبه جداً، يستخدمها لإهانة شخص جبان. أعاد ترديد البيتين المنقوصين بصوت منخفض، كأنّه يرثي الأب الثائر. بلبل لم يكترث، تكفيه الأشهر الثلاثة الّتي قضاها الاثنان يتحدّثان عن كلّ شيء، فهمت فاطمة الأمر كمصالحة متأخّرة بين حسين وأبيه، أحبّت مباركتها لكنّ صمت بلبل الثقيل جعلها تتراجع، منتظرة فرصة ملائمة للحديث عن رأيها



بقطيعة الأب وحسين الطويلة الّتي مرّت في مراحل مختلفة. صحيح أنّهما تقاربا أحياناً وحاولا فتح صفحة جديدة، لكنّ علاقتهما لم تعد إلى صفائها الأوّل، حين كان حسين مدلّل العائلة.

اكتفى جنديّ الحاجز الأخير قبل الخروج من دمشق بإلقاء نظرة سريعة على الأوراق، وسمح لهم بالمرور. غادرت الكثير من الجثث المدينة هذا اليوم، كما دخلت إليها الكثير من الجثث. أصبح منظرها مقزّزاً بالنسبة للجنود الغارقين في الوحول، إنّها تنبئ بموتهم المقبل، هم أيضاً يريدون النسيان وسط هذا الجحيم. لم ينظر حسين إلى ساعته، تنفّس الصعداء، لقد تخلّص من زحام ساحة العبّاسيّين وأصبحت دمشق وراءهم. يجب الوصول إلى العنابيّة قبل منتصف الليل، فاطمة وبلبل استعادا تفاؤلهما، تفقّدا مستلزمات السفر، زجاجات المياه المعدنيّة، السجائر، الهويّات وما بقي من نقود.

سيُدفن في الوقت المناسب، قال بلبل لنفسه، لن تتفسّخ الجثّة في هذا الشتاء البارد. من حسن حظّهم أنّه لم يمت في شهر آب حين ينهش الذباب الأموات. الموت واحد في كلّ الأوقات، إلّا أنّه عبء ثقيل على الأحياء أحياناً. فرق كبير بين رجل عجوز يموت في قريته بين أحبّته قريباً من المقبرة، وآخر يموت بعيداً عنها مئات الكيلومترات. شقاء الأحياء يختلف عن شقاء الأموات، لا أحد يحبّ مصير التفسّخ لمن يحبّه، يريد صورته في الموت أكثر جمالاً، إنّها الصورة الأخيرة الّتي لا يمكن محوها من الذاكرة، وهي تعبير عن خلاصة البشر، الكائن الحزين تبقى صورته حين ترتخي عضلاته حزيناً، والكائن الكئيب لا تفارق ملامح الكآبة وجهه، غالباً تشبه الصورة الأخيرة صورة الولادة الأولى.

على حاجز بوّابة الخروج من دمشق قبل الانعطاف إلى الطريق الدولي، سأل العسكري وهو يشير بيده إلى داخل السيّارة عمّا تحتويه



البطانيّات، قال بلبل بهدوء: «إنّها جثّة أبي». أعاد تأكيد السؤال وأشار بإصبعه إلى الأغطية الثقيلة المكدّسة، فأكّد له الجواب. أشار العسكري إلى حسين بالسير إلى ممرّ فحص البضائع حيث تصطفّ سيّارات نقل عامّة، يدور حولها عسكري في العشرين من عمره بجهاز كشف المتفجّرات. ترك الجندي الحاجز، دخل إلى غرفة مسبقة الصنع تُستخدم كمكتب وغرفة نوم لجنود الحاجز، وبعد دقائق تقدّم ضابط نحو الميكروباص، فتح الباب بحركة عنيفة، وأمرهم بالكشف عن الجثّة. رفع بلبل الغطاء عن وجه أبيه، ما زال نضراً وموته طازجاً، سألهم بلهجة محقّق قاسية عن الأوراق الرسميّة للجثّة، قدّمت له فاطمة شهادة الوفاة موقّعة من مدير المشفى العمومي ورئيس قسم المشرحة، بالإضافة إلى هويّاتهم. دقّق في الهويّات، فاجأهم بسؤاله عن هويّة الأب الميت، كاد بلبل يشرح له أنّ الجثث تملك اسماً واحداً وتنسلّ من تاريخها وماضيها لتنتمي إلى عائلة واحدة هي عائلة الأموات، وأن لا هويّة لميت سوى شهادة الوفاة، لكن فاطمة استلّت الهويّة من حقيبتها وقدّمتها للضابط الّذي دقّق في وجه الأب وصورة الهويّة الّتي التُقطت منذ عشرين سنة، كان حينها يحبّ الضحك، وتبدو على وجهه علامات رجل قويّ وصارم، أخذ الضابط الهويّات وعاد إلى الغرفة، وتبادل الثلاثة النظرات، قرّروا الانتظار في السيّارة دون أيّ حركة.

كان حسين في مكانه أمام المقود ينظر إلى الساعة بغضب، يتمتم بكلمات غير مسموعة، اقترب منه أحد سائقي الشاحنات الصغيرة وقال بصوت مسموع: «لن تمرّ البضاعة دون رسوم». بسرعة ترك حسين الميكروباص، لحق بالضابط إلى الغرفة الصغيرة، دفع الرشوة الّتي سُمّيت رسم العبور وعاد بهويّاتهم، كان يشعر بانتصار غريب وهو يغادر الحاجز مسرعاً، بلبل فكّر أنّ أباه بضاعة كفحم



النرجيلة وصناديق البندورة وأكياس البصل. صمته لم يعجب حسين الّذي قال بلهجة حازمة إنّه دفع ألفي ليرة، وإنه يجب الوصول قبل منتصف الليل إلى العنابيّة.

فكّر بلبل للحظة بالعودة إلى دمشق وتدبّر أمر الدفن في إحدى مقابر المدينة، رغم معرفته باستحالة ذلك، فالقبور غالية في دمشق. في السنوات الأخيرة، أصبح يُعلن عن بيعها في إعلانات الصحف المبوّبة، وهم لا يملكون سوى خمسين ألف ليرة لم يبق منها حتى الآن سوى خمسة وثلاثين ألف ليرة. العودة أصبحت شبه مستحيلة، فكيف سيحصلون على إذن دفن، ويقنعون جنود الحواجز بتغيير رأيهم في مكان دفنه، وبأنّه تُوفّي في دمشق ولم يمت في المدن الثائرة في الريف القريب؟

الجثث غالباً لا تعنيها الأمكنة. مجرّد التفكير في الأمر كان يصيب بلبل بإحباط كبير. انتصف النهار منذ قليل، شعر بالتعب، فقد رغبته في أيّ فعل. رفعت فاطمة الغطاء عن وجه أبيها، حدّثت نفسها بأنّ الهواء القادم من نافذة الميكروباص رغم برودته سينعشه، فتحت النافذة رغم أنّ الموتى لا يتنفّسون ولا يعنيهم الهواء منعشاً أو فاسداً. طلب منها بلبل تغطيته كي لا تذوب ألواح الثلج المرصوصة حول جسمه، نفّذت الأمر دون نقاش. تمنّى بلبل الجلوس صامتاً لحين وصولهم إلى العنابيّة، سيقوم الأقرباء بالدفن، بعدها سيهرب من العائلة للمرّة الأخيرة، يعود إلى شرنقته، ويعيش كجرذ في غرفته إلى وقت تحقّق حلمه في الهجرة إلى بلد بعيد، هناك يريد للثلج أن يطمره، ولن يتذمّر من أيّ شيء. في هذه اللحظات كان يفكّر بضيق المكان، وبالمفاجآت الّتي يتوقّعها، منذ ثلاث سنوات لم يحمل أحد جثّة كلّ هذه المسافات ويذهب إلى دفنها في العنابيّة.



انزعج حسين من صمتهما، وحين لم تسعفه ذاكرته بحكمة من تقاويمه، طلب من فاطمة بعصبيّة إغلاق النافذة، وأخبرهما بتشفٍّ أنّهم لن يصلوا إلى العنابيّة قبل منتصف الليل، بل ولا حتّى قبل الفجر ربّما، أضاف، ثمّ نظر إليهما في المرآة، تبادل الثلاثة الخوف، كلّ تقديراتهم ذهبت أدراج الرياح، تأخروا أكثر ممّا يجب، قلّة السيّارات العابرة، الفراغ والبراري البعيدة، وكلّ شيء على الطريق يزيد من خوفهم.

عند مطلع الطريق الدولي، كانت السيّارات تنعطف إلى طريق فرعي. سأل حسين سائق سيّارة أجرة إن كان الطريق مغلقاً، فأجابه بأنّ القنّاصة يمنعون المرور، وأضاف: منذ ثلاث ساعات قنصوا أربعة مسافرين، مشيراً إلى أربع جثث لرجل وامرأة وشابّ وفتاة. فكّر بلبل بأنّ هؤلاء اختاروا الموت كما عاشوا، كعائلة. انحرف حسين بالميكرو في زواريب ضيّقة، أصوات قصف الطيران قريبة منهم، باستطاعتهم رؤية الطائرة وهي تطلق صواريخها من ارتفاع منخفض، الشظايا تتناثر حولهم. حاول حسين التركيز على الطريق كي لا يجدوا أنفسهم محاصرين وسط بساتين الزيتون المحترقة.

عدد كبير من السيّارات تسير رتلاً، لا بدّ أن أحداً ما يعرف الطريق جيّداً ويقود هذا الرتل. يفكّر بلبل في فخّ الحصار، لكنّ عودة السيّارات إلى الطريق الدولي منحته الأمل من جديد. تمنّى في تلك اللحظة لو يصمت حسين كي يستطيع تأمّل موت أبيه، لكنّ حسين أثنى مرّة أخرى على مهارته في تخليصهم من الضياع. حاول بلبل ترتيب الجثّة الّتي بدأت تفقد توازنها، فكّر بربطها، الاقتراح سيفتح نقاشاً لم يكن مستعدّاً له، نبهتهما فاطمة إلى السندويشات الّتي أحضرتها من أجل رحلتهم الطويلة، أشار إليها حسين بأنّهم سيقفون في أقرب استراحة حين يقتربون من حمص، بلبل لم يتناول أيّ طعام



منذ ليلة أمس. برأيه، من غير اللائق تناول الطعام بعد ساعات قليلة من موت الأب.

صمتت فاطمة وأعادت السندويشات إلى كيس البلاستيك، تحاشى بلبل النظر إلى يمين الطريق، اعتاد صوت تحليق الطائرات والمدفعيّة وراجمات الصواريخ الّتي لم تهدأ منذ ثلاث سنوات، القصف على القابون وجوبر لم يتوقف. يستطيعون رؤية آثاره على الأبنية المرئيّة من الأوتوستراد، بقي بلبل محافظاً على استرخائه غير مكترث بأيّ شيء. نبّههم حسين إلى اقترابهم من حاجز القطيفة وأنّه سيقف في صفّ الشاحنات فوراً كسباً للوقت. لم يحتجّ بلبل، ناوله قسماً من النقود الّتي بقيت معه. في أعماقه لم يقبل معاملة جثّة أبيه بهذه الطريقة المهينة، لكنّه تذكّر آلاف الجثث المتروكة في العراء للطيور الجارحة والكلاب الجائعة، وجد أنّهم محظوظون، حاول نسيان الجثث الأربع المرميّة في منتصف الأوتوستراد ولا أحد يجرؤ على الاقتراب منها، بدأ جسمه يخونه. تمنّى التمدّد قرب أبيه كما كان يفعل حين كان صغيراً، لكن الخوف منعه من النوم قرب رجل ميت.

كان طابور الشاحنات وسيّارات النقل الطويل مُحبطاً، يحتاجون إلى ساعات قبل وصول دورهم. انتظر بلبل أن يتصرّف حسين لكنّه كان خائفاً مثله لا يجرؤ على التحدّث مع عناصر الحاجز الغاضبين. قدّر بلبل أنّهم خائفون أيضاً، قد تشفق قلوبهم على رجل ميت. ذهب إلى الضابط، شرح له الوضع بمقدّمة منمّقة وكلمات محدّدة، الضابط لم يسمعه، كثيرون يتحدّثون معه. صوت بلبل كان ضعيفاً وخائفاً كعصفور مبلّل في غرفة عفنة. في النهاية تورّطوا في الطابور، لن يستطيعوا الفكاك، حاصرتهم السيّارات من كلّ الاتجاهات والحواجز الإسمنتيّة الضخمة تمنع خروج أيّ سيّارة عن مسارها. رأى بلبل في طريق عودته حسين متأفّفاً من تصرّفه كما يفعل دوماً، كان



يتحدّث مع فاطمة بانفعال ويصف بلبل بالغبيّ، المتردّد الّذي انتظر وصولهم إلى نقطة اللاعودة دون إكمال الحديث مع الضابط وإقناعه بخصوصيّة وضعهم. حاولت فاطمة تخفيف وطأة التوتّر، حدّثتهما عن ابنة حميها الّتي خرجت من السجن الأسبوع الماضي، تعتقد أنّهم اغتصبوها داخل الفرع. أضافت أنّ وجهها أصفر وأنّها فقدت نصف وزنها وشعرها محلوق على الزيرو، تهذي في الليل بكلمات غريبة. لم يردّ حسين لكنّ فاطمة تابعت قائلة إنّها مصابة بالجرب، واضطرّ أهلها إلى عزلها في غرفة الدجاج على السطح، وخطيبها تركها وطالب أهلها بالهدايا.

كانت الجثث الأربع المتروكة على إسفلت الطريق الدولي، لا تفارق خيال بلبل، والآن قصّة بنت حمي فاطمة حفرت في أعماقه. في مثل هذه الظروف، على طريق السفر، يتبادل الناس الحكايات الحلوة للتخفيف من القسوة، يتحدّثون عن نجاحات أبنائهم في المدارس، أو مواسم المربّيات، لكن لا أحد يستطيع ضبط الآخر، منذ عشر سنوات وثلاثتهم لم يجتمعوا كعائلة لأكثر من ساعات في واجبات صباح العيد، وهي قليلة لا تكفي ليعرفوا إلى أين وصلت حياتهم. في اللحظات الأولى حين غادروا المشفى لم يخفوا إحساسهم بالضيق من وجودهم الاضطراريّ معاً، بعد لحظات شعر الجميع بالتواطؤ. لديهم فرصة حقيقيّة للحديث مرّة أخرى عن إمكانيّة عودتهم كعائلة، لكنّ حسين غير مكترث، بلبل ليس لديه أيّ رغبة، وفاطمة تحاول القيام بدور أخت تجمع شمل العائلة بعد وفاة الأبوين، دور سمعت عنه كثيراً، شيء يشبه وراثة الصفات، الأخ الكبير يرث دور الأب، والأخت ترث بالضرورة دور الأمّ، لكنّ وراثة صفة الأمّ تحتاج إلى قوّة لم تكن تمتلكها فاطمة الّتي كبرت، وأصبحت أمّاً لكنّها لا تشبه أمّها. فقدت حلمها بالثراء، اكتفت بالتشكّي وتوفير نقود قليلة من راتبها وراتب



زوجها في حساب بنكي لا أحد يعرف عنه شيئاً. تحوّلت إلى امرأة بخيلة من أجل ثروتها المتواضعة، تلملم فضلات بيت أهلها وتقبل صدقات بيت حميها، ذكاؤها المتوسّط جعلها تبدو بائسة، لم يعد لديها سوى الأمل بأن يعوّضها ابنها أو ابنتها حلم الثراء، لتنتقم من فقدها الكبرياء التي اشتهرت بها حين كانت صبيّة صغيرة، تخطو بثقة إلى حياة سعيدة.

فاطمة الآن تقترب من الأربعين، ما زالت ندوب الكبرياء المفقودة واضحة على وجهها، كلّ الّذين يفقدون كبرياءهم يصبحون بخلاء وأكثر عنجهيّة، تخبو عيونهم وتتراكم الأحقاد داخلهم، يميلون إلى الثرثرة وتأليف بطولات وهميّة عن حياة لم يعيشوها. فاطمة مرّت بكلّ هذه المراحل واستسلمت في النهاية، بدأ ينمو أملها في ابنها الّذي استطاع دخول كلّية طبّ الأسنان، وابنتها الّتي ما زالت في الرابعة عشرة من عمرها، يعجبها حين يقولون إنّها تشبهها – وتردّد بشكل آليّ – إي حلوة. أعدّت لهما حياة مختلفة تماماً، تعيد عليهم سيرة زواجها الأوّل برجل أعمال كبير. في الحقيقة لم يكن أكثر من سمسار صغير يحبّ خدمة التجّار الكبار، يسيّر معاملاتهم في مؤسّسات الدولة، يقضي لهم الأعمال القذرة، كمراقبة زوجاتهم أثناء سفرهم، أو اصطحاب بناتهم القاصرات إلى بيروت للتسوّق والعودة بهنّ في اليوم ذاته.

ذات يوم، كانت تنتظر الباص الّذي يقلّها إلى معهد إعداد المعلّمات في المزّة، كان الموقف مزدحماً والمطر غزيراً، ببراءة قبلت دعوة ممدوح لتوصيلها، ظنّته أحد معارف أخويها، بعد تردّد صعدت إلى السيّارة، فاجأها بالقول إنّه يراها دوماً على موقف الباص وتعجبه، أضاف أنّه أحد طلاب أبيها في المدرسة الثانويّة. اعتبرت إعجابه شيئاً عاديّاً لا يمكن التوقّف عنده، كانت تعتقد في أعماقها



بأنّ أغلب شباب البلدة معجبون بها، لكنّه الوحيد الّذي امتلك جرأة الاعتراف. ككلّ بنات صفّها كانت تؤلّف القصص الوهميّة عن مطاردات العشّاق لها، وجوده في حياتها أرضى غرورها أمام بنات صفّها، تتعمّد أن يرينه وهو يوصلها في سيّارته كلّ صباح إلى المعهد، تتمهّل بالنزول من السيّارة، تحدّثه كأنّها تأمره بشيء، وممدوح يهزّ برأسه موافقاً. رغم إعجابها به منذ اللحظة الأولى لم تستسلم بسهولة، تعاملت معه بفوقيّة، لم تفصح عن مشاعرها ببساطة، في أعماقها كانت تنظر إلى ذاتها بتقدير كبير، وممدوح عبّر عن صبره وإعجابه بطباعها المتعجرفة، وجذبته أوهامها عنه. افترضته شخصاً آخر، تتحدّث عن مستقبلهما بطريقة غريبة، مليئة بالتفاؤل والأمل، وكلّ هذه الأشياء كانت تعجب ممدوح، كانت تعجبها أناقته وهداياه الصغيرة، الّتي اقتصرت على زجاجات عطر، حذاء إيطالي وبنطلونات جينز من ماركات مزوّرة تباع كماركة أصليّة في محالّ دمشق الكبرى، وفي أعماقها كان يفتنها كلامه الرائع عن الحبّ والعائلة السعيدة الّتي هما مقبلان على تأسيسها.

نمت بينهما قصّة حب هادئة، فكّرت فيه، وأقنعت نفسها بأنّ رجلاً لديه كلّ هذه العلاقات والدماثة والمعرفة في شؤون الحياة، إن لم يكن غنيّاً الآن فسيصبح غنيّاً بالتأكيد. تزوّجته رغم اعتراضات أبيها، الّذي وصفه بالزئبق، قال لا يمكن لفتاة بكلّ هذه الكبرياء الزواج برجل لا يختلف مع أحد، دون أيّ قيم تمنعه من التحوّل إلى قوّاد. دافعت عنه بهدوء، ولم يتمسّك أبوها برأيه، وافق على زواجهما وفي أعماقه كان يشعر ببؤسها المقبل.

حاول ممدوح التأقلم مع حياته الزوجيّة الجديدة، لكنّه لم يعد يتحمّل أوهام زوجته عن جمالها العادي وانتمائها العائلي وتقديرها لذاتها. كلّ ذلك كان مبالغاً فيه، فهي ليست سوى مجرّد فتاة عاديّة



لا يمكن أن تثير انتباه أحد، بينما، في اعتقادها، كانت ذات جمال وأنوثة موصوفين، وكلّ ما تفعله يتّصف بالكمال، بينما هي، في الحقيقة، لا تحسن صنع أيّ شيء بإتقان. شعر منذ الشهر الأول بأنّه تزوّج بالمرأة الخطأ، اكتشف أنّ الأوهام الّتي ظنّ أنّها كلام سينتهي، هي حقائق غير قابلة للجدل بالنسبة إلى فاطمة، تعيشها كلّ لحظة بثقة مطلقة. رغم انجذابها نحو ممدوح في الأيّام الأولى لزواجهما، ونتيجة الإحباط الّذي تملّكه، شعرت بملل فظيع منذ الشهر الأوّل لكنّها احتملته، موحيةً للجميع بأنّ حياتهما الزوجيّة سعيدة. ثقتها بنفسها وكبرياؤها جعلتاها تعتقد بقدرتها على صياغة زوجها من جديد. إيحاؤه لها بقوّتها الوهميّة وضعفه كان يرضي غرورها، لكنّه لم يكن كافياً لتأكيد سيطرتها عليه، تلك السيطرة الّتي كانت تشعر بها قبل الزواج. جميع محاولاتها لفرض نظام مختلف على حياته لم تنفع، وأصبحت علاقتهما دون أيّ طعم فلم تصمد أكثر من سنة. قال لها بسيسافر لتأمين مستقبله، خيّرها بين الطلاق أو الانتظار لحين عودته من اليونان، مضيفاً أنّه قد لا يعود أبداً. كان الزواج بالنسبة إليه خطأ يجب تصحيحه، فعرض عليها مخالعة ودّية لم يكن أمامها من خيار سوى قبولها. كانت فاطمة بالنسبة إليه تجربة زواج قصير وفاشل، انتهى إعجابه بها وأصبحت بالنسبة إليه امرأة باردة وسخيفة، وعائلتها تعيش الوهم كحقيقة غير قابلة للجدال، ففكّر في ورطته وقرّر التخلّص منها قبل أن تصبح أمّاً، ويتحوّل هذا العبث إلى أمر واقع لا يمكن الفكاك منه مدى الحياة.

بعد طلاقها، قال أبوها بمرارة: تزوّجت من أجل وجبات بروستد الدليفري والجلوس إلى طرف طاولة عائلات تجّار كبار في صالة رقص راقية، ينظرون إليها كزوجة خادم، قلوبهم الطيّبة سمحت لها بأن تكون معهم في المكان نفسه، وهي تحسَب أنّها صديقة زوجاتهنّ ويحقّ لها



مشاركتهنّ شؤونهنّ الخاصّة. كانت تسأل زوجة وكيل شركات يابانيّة عن أفضل نادٍ للتخسيس في دمشق، وبكلّ جدّية تنتظر الجواب، أو تبوح لِزوجة وكيل شركة نفط فرنسيّة بعدم رغبتها في الإنجاب قبل خمس سنوات من زواجها كي لا يرتخي جسمها ويترهّل بطنها، وفي صباح اليوم التالي تتثاءب في غرفة المدرّسات متأفّفة من سهرات زوجها مع رفاقه وشركائه الّتي لا تنتهي. ممارسة السخافة هي دوماً جزء من هالة النفوذ، وهي كانت تعجبها تلك السخافة، خاصّة حين ترى إمكانيّة تصديقها في عيون زميلاتها.

عادت إلى غرفتها في منزل أهلها فاقدة التوازن ومخدوشة الكبرياء، غير مصدّقة أنّ كلّ شيء انتهى، وأنّ ثمنها فقط ستّ حقائب محشوّة بألبسة وأحذية مستعملة، ومجموعة زجاجات عطور مزوّرة، بالإضافة إلى مئتي ألف ليرة سوريّة دفعها ممدوح كمؤخّر، بعد توقيع الطرفين على عقد المخالعة.

يومها جلس بلبل قرب أبيه بصفته الأخ الكبير، كان حضوره واجباً شعر بثقله، الغضب المكتوم في صدر أبيه جعله يصمت طويلاً، شعر بإهانة كبريائه التي حافظ عليها طوال عمره، تعاطف بلبل مع الرجل المحترم الّذي اضطرّ، من أجل فتاة غبيّة، إلى مصافحة الطالب الّذي كان يصفه بالتافه. أنهى الأب الموضوع بسرعة، فتح الباب وطلب من ممدوح المغادرة. في تلك الليلة أحسّ بلبل بأنّ أباه لا بدّ سيموت، فقد دخل إلى غرفته، أغلق الباب ولم يكلّم أحداً لعدّة أيّام، سافر بعدها إلى قريته. كان الأب، كلّما شعر بالضعف، كان يسافر إلى العنابيّة، هناك يكفيه السير في الحقول، وتلبية دعوات بسيطة ممّن بقي من أصدقاء طفولته، يلعبون الورق ويستعيدون ذكريات قليلة ببطء شديد. بعد عودته من تلك الزيارات، كان يشعر بأنّه معافى، وأكثر ثقة بنفسه.



حين وصل دورهم في الطابور، طلب العنصر من حسين أخذ الهويّات إلى غرفة الفيش، وبقي يتفحّص الجثّة. تمنّى بلبل في أعماقه لو أن والده مات في ذلك اليوم البعيد، لكان من السهل تنفيذ وصيّته ودفنه في قبر أخته ليلى. سيواسيهم الجيران اللطفاء كما فعلوا حين ماتت أمّهم، رافقهم وفد من أربعة رجال إلى المقبرة الّتي تبعد أربعمئة كيلومتر عن بلدتهم، وبعد عودتهم إلى البلدة فتحوا عزاءً جديداً في بيت أحدهم، طبخوا وقاموا بواجبات ضيافة المعزّين بكل أريحيّة، كانوا ممتنّين لأنّ الأستاذ عبد اللطيف السالم سمح لهم بمشاركته أحزانه.

رأى بلبل حسين قادماً من بعيد يرافقه عنصر يلوّح ببارودته، ويشير إليهم بالنزول. اقترب حسين من بلبل وهمس له: «سيعتقلون الجثّة». لم يفهم، ظنّ في الأمر التباساً، لكن حين فتح العنصر باب غرفة قرميديّة دون نوافذ ورماهم داخلها فهموا أنّ الأمر جدّي. لقد اعتقلوا الجثّة، الأب كان مطلوباً لأكثر من فرع مخابرات منذ أكثر من سنتين.

كانت الزنزانة مكتظّة، أكثر من عشرين شخصاً أعمارهم مختلفة، من بينهم امرأة مسنّة تتجاوز السبعين من عمرها، أخبرت فاطمة، دون سؤال، أنّها رهينة بدل ابنها الّذي انشقّ عن الجيش في السنة الماضية، أيضاً شابّ يده مقطوعة لا يتجاوز العشرين من عمره مع رفيقين بمثل عمره، أخبرهم بشكوك المخابرات في قطع يده في الاشتباكات، لا في حادث سيّارة قديم، أضاف أنّه ورفاقه في طريقهم لركوب البحر من تركيا إلى اليونان والهجرة إلى السويد، يعتقد أنّ قصّتهم لن تنتهي ببساطة، فقيد نفوسهم على البطاقة يشير إلى بابا عمرو في حمص، لقد اعتادوا أمر التوقيف. آخرون يتعالى صوت شخيرهم أو يحدّقون في الزاوية المظلمة بصمت، هيئتهم تدلّ



على أوضاعهم المزرية، لقد قضوا وقتاً طويلاً، علامات الضرب على وجوههم، أحدهم ثيابه ملوّثة بدم متخثّر، رأسه مربوط بقميصه. حاول بلبل امتلاك شجاعة النظر إلى هؤلاء البشر الّذين لن يعرف أحد مصيرهم بعد ترحيلهم إلى الفرع، نظر إلى فاطمة، كانت تستمع إلى العجوز الّتي لا تتوقّف عن الثرثرة بتفاصيل عن ابنها، قالت إنّ موتها لم يعد يعنيها وإنّها سعيدة لانشقاق ابنها. قال بلبل في قرارة نفسه لا بدّ أنّ فاطمة ستخبر المرأة عن قصّة ابنة حميها الآن، ستكرّر قصّة اغتصابها وهجر خطيبها. هذه النقطة تثير شهيّة الثرثرة لدى فاطمة.

يرى بلبل من مكانه القصيّ الوجوه قاتمة في ظلام الزنزانة المرتجلة، خائفة، حزينة. يتهامس الموقوفون بصوت منخفض يشبه طنين نحل عجوز، رتيباً ومتواصلاً، كلّهم مجهولو المصير، يفكّر بأنّه لا يمكن لأحد الدخول إلى مكان مثل هذا ومعرفة مصيره، في السنوات الأربع الماضية اختفى الكثيرون، لم يعد الأمر مستغرباً، عشرات الآلاف لا يعرف أحد مصيرهم. طلب حسين من فاطمة القول إنّها طليقة ممدوح وليست متزوّجة بعصام، هزت برأسها موافقة دون سؤاله عن أهمّية الموضوع، كانت تعرف حبّه إصدار الأوامر وهي تحبّ إطاعته. محاولة أخرى لطرد الخوف من أعماقهما، ستتكرّر كثيراً في رحلتهم كما كانت التصرّفات غير المفهومة تتكرّر بينهما في الطفولة.

أرض الزنزانة باردة، شبّاك صغير تتسرّب منه أصوات عناصر مخابرات لا يتوقّفون عن الحديث بصوت عالٍ. بلبل لم يشارك الموقوفين أحاديثهم، حرص على ألّا يتورّط بأيّ كلمة، لم يسأل أحداً ولم يسمح لأحد بسؤاله، تجنّب إظهار ردّ فعل متضامناً أو متعاطفاً مع قصصهم الّتي تثير حزناً وغضباً لا متناهيين، كاد يغرق في النوم لولا ضجيج الباب الحديدي الضخم الّذي يُفتح بين الحين والآخر. تداعت



إلى ذاكرته قصص التعذيب الفظيع الّتي سمعها. في قرارة نفسه كان موقناً بعدم احتماله قلع الأظافر وكابلات الكهرباء وضيق التنفس في الزنازين المكتظة، والعبور فوق الجثث المتفسّخة، لا بدّ سيموت بعد أوّل جولة تعذيب، أغمض عينيه، شعر بطمأنينة غريبة تتسلّل إلى أعماقه، سيكون جثّة دون وصايا، لا يهمّه إن أحرقت أو تُركت للكلاب تنهشها، وقتها سيتمدّد قرب أبيه دون خوف، تفكيره في تلك الصورة منحه شجاعة يحتاج إليها، لن يفاخر ببطولات حقيقيّة أو وهميّة. حجم الحقائق الّتي رواها المحظوظون بالخروج من الزنازين، وتداولها الناس في كلّ مكان، مرعبة ولا يمكن تصديقها.

طلب العنصر الّذي فتح الباب أحداً من أهل الجثّة، تجاهل حسين الموضوع وبقي مندمجاً مع ثلاثة شبّان في حديث طويل عن أنواع دواليب السيّارات، تبدو سعادته واضحة على وجهه المتحمّس، سيل من الحكم والمصطلحات الّتي يحبّها كانت تتدفّق على لسانه بطلاقة غريبة. اضطرّ بلبل للنهوض حين أشار إليه العنصر أن يتبعه.

وقف بلبل أمام ضابط لم يتجاوز عمره ثلاثين سنة، كانت الأوراق بين يديه، هويّاتهم وشهادة الوفاة الموقّعة حسب الأصول، سأله بالتفصيل عن كلّ فرد في العائلة وعن أصدقاء أبيه، قال إنّه سيحوّلهم إلى الفرع ويعتقل الجثّة حسب الأصول. كان كلام الضابط بارداً، رجاه بلبل السماح لهم بمتابعة السفر، أضاف أنّه مؤيّد للنظام ولا علاقة له بأبيه، ويعيش في منطقة «م» المختلطة منذ أكثر من عشرين سنة، شتم بلبل أباه أمام الضابط الّذي كان يعيد تقليب الأوراق والهويّات بين يديه وينظر إليه باحتقار. صمتُ الضابط للحظات منح بلبل أملاً بأنّه غير جادّ في تحويلهم إلى الفرع، لكنّه لا يعرف كيف سيطلب الرحمة لجثّة.



شرح له الضابط أنّ أباه بالنسبة للسجلّات ما زال حيّاً ومطلوباً، لا يهمّ إن كان جثّة أو جيفة، ثمّ أضاف أنّ رئيس الفرع سيبتّ أمره في النهاية، طالباً منه الجلوس في الغرفة الأخرى وملء استمارة معلومات كاملة وتوقيعها. كان بلبل خائفاً ويتصبّب عرقاً. حقّاً اعتقلوا الجثّة. جاء عنصر وأخذ مفاتيح الميكروباص من حسين، قاده إلى كراج قريب، أغلق أبوابه، ونبّه الحرّاس بعدم السماح للميكروباص بالخروج إلّا بعد موافقة الضابط.

اقتاده العنصر نفسه إلى الغرفة الأخرى وقال إنّها ليست الحالة الأولى، الشهر الماضي اعتقلوا جثّة، أرسلوها مخفورة بالحرس إلى مشفى تشرين العسكري حيث قامت لجنة بفحصها والبتّ في أمرها، ولم تسلَّم لأهلها إلّا بعد انتهاء الإجراءات الرسميّة. شرح العنصر بإسهاب الإجراءات الرسميّة الّتي تتطلّب الذهاب إلى السجلّ المدني، وشطب قيود المتوفّى، ثمّ الذهاب إلى الفيش المركزي وإصدار برقيّة كفّ بحث، أمّا الإجراء الثاني فهو اعتقال الجثّة في الفرع، ثمّ تحويلها إلى مشفى عسكري لفحصها، وإثبات موت المطلوب وإكمال الإجراءات القانونيّة لكفّ البحث. كان العنصر يردّد بين جملة وأخرى أنّ البشر بالنسبة إلى الدولة مجموعة وثائق وأوراق وليسوا كياناً مادّياً أو روحيّاً، وكان بلبل يهزّ برأسه يائساً، يطلب من العنصر الاستفاضة في شرح المزيد عن هذه الحالة، إلّا أن العنصر توقّف عن الكلام وأمره بملء الاستمارة بالمعلومات المطلوبة.

في الغرفة الأخرى شعر بلبل بوطأة رقابة العناصر الصامتين، ملأ الاستمارة بالمعلومات التفصيليّة المطلوبة عن جميع أفراد عائلته وأقربائه وأقرباء أقربائه، سلّمها إلى العنصر الواقف على باب مكتب الضابط، استجمع كلّ شجاعته، عرض على العنصر الّذي شرح له الإجراءات رشوة، سمّاها بكل تهذيب رسوم عبور بضاعة، نظر إليه



العنصر ساخراً من خفره، واتفقا على عشرين ألف ليرة سوريّة في حال موافقة رئيس الفرع على إخلاء سبيل الجثّة المعتقلة، ثمّ أدخله الزنزانة وتمنّى له حظاً جيّداً بإسراع رئيس الفرع في بتّ الطلب، مضيفاً أنّهم لن يتحرّكوا من هنا قبل وصول البرقيّة الّتي ستحدّد مصيرهم.

الوقت مرّ بطيئاً، وتورّط السجناء في فتح أحاديث متشعّبة صمّم بلبل على تجاهلها وعدم المشاركة فيها. كان يفكّر في المتاهة الّتي سيضيعون فيها إذا قرّروا تحويل الجثّة إلى المشفى العسكري، يزداد خوفه كلّما تذكّر أنّ البشر مجموعة وثائق. سمع صوت المرأة العجوز تصف لفاطمة خراب وتهدّم أحياء حمص، وتضيف أنّها اعتُقلت ثلاث مرات خلال الثورة – قالت كلمة الثورة بصوت مسموع ودون خوف – لكنّها المرّة الأولى الّتي تُعتقل فيها كرهينة. لم يستغرب بلبل جرأة المرأة العجوز، تشبه جرأة أبيه ورفاقه الّذين مات الخوف في قلوبهم إلى الأبد، لكنّه استغرب حماسة فاطمة لتروي سيرة ابنة حميها وتسأل المرأة العجوز إن كانوا حقاً يغتصبون النساء في الفروع، فضحكت المرأة وأضافت بصوت منخفض والرجال أيضاً، مضيفة أنّ أحداً لن ينسى كلّ هذا الظلم ولو بعد ألف سنة.

كلّما فُتح باب الزنزانة يرمي عنصر سجيناً جديداً. اكتظت الزنزانة أكثر، لكنّ الجميع يعرفون أنّهم سيرحلون إلى الفروع، لن يناموا أو يطول مكوثهم هنا، وإلّا فسيضطرّون لفصل النساء عن الرجال. أخذ بلبل يفكّر إن كان في البناء القريب سجن أكبر من هذه الزنزانة المؤقتة، ثمّ توقّف عن التفكير في الأمر، مردّداً أنّ الزنازين في كلّ مكان. في المرّة الأخيرة دخلت إلى الزنزانة أمّ وطفلاها، لم تنتظر طويلاً، جلست قرب المرأة العجوز وفاطمة، وأخبرتهما بعدم معرفتها لتهمتها، كانت في طريقها إلى بيروت حيث يعمل زوجها عامل بناء، أمروها بالنزول من بين ركّاب الباص القادم من دير الزور.



بعد دقائق قالت إنّ ستّة من إخوتها انضمّوا إلى الجيش الحرّ، وهم الآن يقاتلون مع الكتائب الإسلاميّة المتطرّفة في الميادين بعد انتهاء ذخائر كتائب الجيش الحرّ وانقطاع التمويل عنها، أضافت أنّ كثيرين تحوّلوا إلى الكتائب الإسلاميّة الّتي تملك الكثير من الأموال. كانت المرأة تشرح كلّ شيء بصوت عالٍ، وبلبل ينظر إليها من بعيد.

نهض بلبل حين رأى حسين شبه نائم، أراد بلبل شرح خطورة تراخيهم، المتاهة الّتي سيدخلونها ستغرقهم، لكنّه غيّر رأيه حين رأى أخاه لا يزال مندمجاً في الحديث عن دواليب السيّارات. وقف على باب الزنزانة، لمح العنصر الّذي تحدّث معه، أشار له برغبته في مكالمته، ففتح العنصر باب الزنزانة، ذكّره بلبل باتفاقهما، والعنصر وعده خيراً مقابل رفع المبلغ إلى ثلاثين ألفاً، وافق بلبل شارحاً أنّهم أبناء عائلة موظفين فقيرة ولا يملكون سوى هذا المبلغ، أعاده العنصر إلى الزنزانة، وطلب منه البقاء قريباً من بابها.

جلس بلبل قرب حسين وشرح له كلّ شيء، فوجئ حسين لكنّه في أعماقه اعتقد بأنّ المتاهة قد تنقذهم من المجهول. تمالك بلبل نفسه مضيفاً أنّهم قد يعتقلونهم كرهائن، حكّ حسين رأسه ولم تنجده ذاكرته من جديد بمثل أو حكمة تلخّص وضعهم، استبعد الأمر وقال إذا اعتقلوا الجثّة فسيتركونها لهم يتصرّفون فيها بطريقتهم، يحرقونها أو يبيعون أعضاءها أو يرمونها في قبر جماعي، فماذا يهمّ الميت في النهاية؟ فوجئ بلبل برأي حسين ولم يفهمه في تلك اللحظة، شعر في قرارة نفسه بخوف أخيه المضاعف ورغبته في الانتقام من علاقته الشائكة مع أبيه، فكّر بلبل أنّ اعتقال الجثّة سيورّطهم جميعاً في المتاهة، الأمور اختلطت ولم يعد يفهم، ترك له حسين التصرّف بالأمر إلى نهايته، شعر بلبل بنفسه عاجزاً، لكنّ خوفه كان أقلّ من أيّ مرّة في حياته.



بعد ساعة فتح العنصر نفسه الباب مرّة أخرى، ورمى بسجين جديد، ذكّره بلبل بوضعهم واتفاقهم، فطلب منه الخروج. بهدوء أتمّا الصفقة الّتي عاد العنصر بعدها وأشار لحسين وفاطمة بالنهوض والمغادرة فوراً، وهو يذكّرهم بضرورة إرسال شهادة الوفاة للسجلّ المدني، ومتابعة معاملة شطب الأب من سجلّات المطلوبين.

بعد دقائق كانوا ينتظرون أمام غرفة الضابط، العنصر الّذي أتمّ الصفقة وقبض المبلغ فتح لهم باب الغرفة واختفى، تركهم للضابط الّذي خطب فيهم، أخبرهم بأنّ رئيس الفرع طلب منه شخصيّاً التأكّد من وفاة المجرم، والسماح لعائلته بدفنه وإقفال ملفّه، كان يتحدث والثلاثة يقفون أمامه باستعداد وتهذيب شديدين، يمتدحون طيبة قلب رئيس الفرع الّذي نظر بعين العطف إلى وضعهم ولم يطلب لجنة طبّية للفحص والتأكّد من صحّة الكلام. وبعد أن رفض تزويدهم بورقة كفّ بحث تمنع الحواجز الأخرى من سؤالهم والتحقيق معهم مرّة أخرى، أكمل خطابه القصير وقال إنّ طريقهم سيكون سالكاً بعد عبور هذا الحاجز، مشكلتهم ستكون مع حواجز الإرهابيين حين يقتربون من حلب. قال الضابط كلمة الإرهابيّين بتفخيم، ثم أشار إليهم بحركة سريعة من يده بالمغادرة قبل تغيير رأيه، أو وصول برقيّة تطلب اعتقال الجثّة مرّة أخرى، وقتها لن يكون في إمكانه إلّا تنفيذ الأوامر، كان يعيد ويكرّر، فإشارة صغيرة من رئيس الفرع قادرة على قلب حياتهم إلى جحيم.

لم تكن تلك المرّة الأولى الّتي يقفون فيها باستعداد أمام رجل يخطب فيهم، لكنّها المرّة الأولى الّتي شعروا فيها باقترابهم من الانزلاق إلى المتاهة، لم يصدّق بلبل كلّ هذه المراسلات، كان سعيداً جدّاً حين خرجت السيّارة من كراج الحجز، وابتعدوا عن الحاجز، كان قريباً جداً من لحظة تحاشاها طوال السنوات الأربع الماضية. عاد إليه



الشعور بالسعادة نفسه الّذي يحسّ به كلّما أفلت من اعتقال محقّق، على ذنبٍ لم يرتكبه، فهويّته كانت المشكلة الرئيسيّة، والآن جثّة أبيه المطلوب كادت تغرقهم جميعاً في متاهة لامتناهية.

زاد اقتراب المساء من خوفهم وورطتهم، شعر حسين بالإهانة لإتمام بلبل الصفقة بمفرده، كان يعتبره غير كفؤ لمثل هذه المهمّات الكبيرة الّتي تتطلّب خبرة في المفاصلة وقراءة وجه الزبون. اكتفى بالقول بشكل واضح إنّ عليهم التفكير في مبيتهم، مضيفاً في تعليق عابر أنّ ثلاثين ألف ليرة مبلغ كبير يُدفع عادة لتمرير شاحنة كبيرة تحمل موادّ مهرّبة، فخاف بلبل من أن يكمل حسين الجملة ليقول إنّ أباهم لم يكن يساوي مثل هذا المبلغ حيّاً، فكيف به بعد أن تحوّل إلى جثّة؟ بالتأكيد سينزل السعر إلى الربع، في قياس على الأحذية الّتي تنتهي موضتها.

لم يكمل حسين تلك الجملة، لكنّه أيضاً لم يصمت كما توقّع بلبل، إذ سرعان ما اقترح بعد دقائق رمي الجثّة على حافة الطريق، متسائلاً عن ثقتهم بنجاحهم في عبور الحواجز الأخرى، وعدم إعادتهم إلى نقطة الصفر إذا اكتشفوا مجدّداً وضع أبيهم المطلوب. أضاف أنّ جثّة أبيه لن تكون الجثّة الوحيدة الّتي تنهشها كلاب البراري، لمَ لا يدفنونها في أيّ مكان ويعودون إلى دمشق؟

شعر بلبل بجدّية حسين هذه المرّة حين سأله رأيه بشكل حاسم وانتظر قراره. لم تخطر في بال بلبل أيّ أفكار للإجابة عن سؤال حسين، لكنّ قوّة عظيمة نبعت من داخله، وقرّر عدم ترك الجثّة قبل تنفيذ الوصيّة. وافقته فاطمة، وطلبت من حسين زيادة السرعة الّتي لن تنفعهم في جميع الأحوال في الوصول إلى العنابيّة هذه الليلة، فقبل الوصول إلى مدينة حمص بكيلومترات قليلة ينتهي الأوتوستراد،



ويجب الدخول في طرق فرعيّة خطرة ليلاً، لا يمكن لأيّ عاقل مجرّد التفكير في عبورها بصحبة جثّة.

حين كان بلبل يرى الشاحنات تعبر بسهولة، تمنّى لو تحوّلت جثّة أبيه إلى أكياس كمّون، وهو أمر ليس سيّئاً إلى الدرجة الّتي يتخيّلها البعض، ثمّ إنّ التفاهم بشأنها سيكون سهلاً والخطر أقلّ. ندم للوعد الّذي أطلقه لأبيه بتنفيذ وصيّته، كان يكفيه عبور تلك اللحظة بعاطفة أقلّ...

ليلة أمس جلس قرب أبيه على السرير، أخبره بصوت واهن باقتراب موعد موته، حاول بلبل ثنيه عن إحساسه، ظنّ للحظة أنّ الموت المنتشر في كلّ مكان، وأصوات القصف الّذي لم يتوقّف منذ ثلاث سنوات هما السبب في كوابيسه، ودخوله مرحلة الهذيان الّذي ازداد في الشهر الأخير. الأب لم يكن الوحيد، فبلبل يشاركه مع الكثيرين هذا الهذيان، يقضون سهرات في تبادل وصفات للنوم، الجميع يشتكي من الأرق والنوم المتقطع والعصبيّة المفاجئة والانهيارات النفسيّة، أزهار بابونج مع إكليل الجبل مغليّة، لبن مخلوط بثوم مدقوق، أو حبوب Faustian، يتبادل بلبل خبراته في الوصفات الّتي جرّبها، ويتحدّث مع زملاء الوظيفة في ضرورة لصق النوافذ بجيلاتين بلاستيكي كي لا يتحوّل الزجاج إلى شظايا حين يتحطّم. وصفات كثيرة يتبادلها سكّان المدينة الواقفون على الحواجز ساعات طويلة في قيظ الظهيرة، أو تحت المطر الغزير، يتفاءلون حين يعبرون بسرعة في ساعات القيلولة والمساء الموحشة. أشياء صغيرة تبهج البشر، أو تخرب حياتهم وتقودهم إلى المجهول، كهذه الجثّة الّتي بدأت تفقد بريقها. لم يتساءلوا حين غادروا المشفى ماذا سيحلّ بهم، في أعماقهم قدّروا هم الثلاثة أنّه منذ زمن بعيد لم يتحادثوا، كلام كثير عالق في الحلق يجب قوله، كي لا يصدأ ويفقد أيّ قيمة



مع الوقت. كانت فاطمة ترغب في استعادة الحميميّة في علاقتها مع أخويها، لكنّ بلبل كان يشعر بعدم رغبته في معرفة أيّ شيء، في لحظات يرغب في عودة ذلك الوئام العائلي، وفي لحظات أخرى يشعر بالمسافة الممتدّة الّتي أصبحت تفصل أحدهم عن الآخر. القطيعة هي الفعل الجيّد الوحيد الّذي قاموا به خلال السنوات العشر الماضية، هكذا كان يفكّر أحياناً. في الحقيقة، الجميع كانوا يشاركونه هذه الحقيقة المؤلمة الّتي من غير المريح لأيٍّ منهم الاعتراف بها، فكلّ واحد منهم كان يعتقد أنّه قام بأكثر من واجبه تجاه العائلة، والآن عليه الالتفات نحو حياته الخاصّة.

في الليلة الماضية كان إحساس الأب بموته جدّياً، لقد فعل كلّ ما يريد فعله، وأثناء إقامته مع بلبل، قال كلّ الكلام الّذي يجب أن يقال، ورغم مرضه، لم يصدّق بلبل حقيقة موته، لا يُعقل أن يموت أحد بشكل طبيعي. حتى جارته أمّ الياس ماتت ذبحاً رغم بلوغها الثمانين، اتّفق ابن أخيها الصغير مع رفاقه على دخول منزلها، نهبوا صندوق مدّخراتها الّذي يتحدّث الجميع عن احتوائه على ملايين الليرات وعدّة كيلوغرامات من الذهب، تعرّفت إليهم وقاومتهم فقتلوها. اضطرّت الشرطة إلى تعقّب الموضوع كي لا يُسجَّل تحت بند جريمة طائفيّة، تثير ذعر سكّان الحارة المسيحيّين.

سكّان الحارة لم يحزنوا كثيراً على أمّ إلياس بائعة الخمر المغشوش والبخيلة، لكنّهم اجتمعوا، وبصقوا على الشابّ الّذي لم يبلغ العشرين من عمره، قبل إجباره على دخول سيّارة الشرطة عنوة، والذهاب برفقتهم إلى شقّة في حيّ ركن الدين، حيث أخفى المسروقات في بئر ماء منزل قريب من المقبرة، يقطنه شريكاه اللذان لم يحاولا الهرب، بل استسلما واعترفا بالتفاصيل الدقيقة. في صباح اليوم التالي، وبكلّ برود، مثّل الثلاثة الجريمة أمام قاضي التحقيق



الّذي شعر بالخيبة، ففعل القتل لم يعد يستدعي الحيطة والحذر. الاعتراف السهل للمجرمين زاد من إحباطه، جميعهم سيجدون طريقاً للفرار من السجن، أقلّها قبول الانضمام للقتال ضمن ميليشيات النظام، أو هجوم المعارضة على السجن، وهدم أسواره وحرق ملفّاته.

في الأشهر الأخيرة لم يعد أحد يسأل عن سبب الموت وتفاصيله، يعرفونها جيّداً، الموت تحت القصف، تحت التعذيب في المعتقلات، قتل بعد الخطف لطلب فدية، رصاص قنّاص، معركة، أمّا الموت كمداً أو بسبب خيانة الجسد لصاحبه، فهي ميتات نادرة هذه الأيّام، الموت الّذي لا يراكم غضباً لم يعد يعوَّل عليه.

قبل مغادرتهم دمشق اتّصل بلبل بالوظيفة وطلب إجازة، تلقّى تعازي باردة من زملائه في العمل عبر الهاتف، لم يطلب من أحد مشقّة الحضور الشخصي لمواساته، أو مساعدته في إجراءات الدفن. في أعماقه شعر بغضب شديد حين أخبره الطبيب الشابّ المناوب بتوقّف قلب أبيه. لو مات قبل ثلاثة شهور حين كان في بلدته «س» لكان الأمر سهلاً، هناك المقابر واسعة، ومن بقي من سكّان داخل البلدة الصغيرة سيدفنون بتقدير كبير أستاذ البلدة اللامع، ورفيقهم في الثورة منذ يومها الأوّل حتّى يومه الأخير. سيعتبرونه شهيداً. كان يكفي بلبل اتصال من أحدهم يخبره بالأمر، بدوره سيخبر حسين وفاطمة، ويذيع الخبر ليصل إلى أسماع من بقي من أقرباء في العنابيّة، بعدها يقوم بلبل بواجبه من بكاء وعزاء صغير لمن بقي من أصدقائهم المقرّبين، لكنّ الجثّة الممدّدة على سرير المشفى، ونظرات الطبيب المناوب أشعرته بورطة حقيقيّة، أصبح الموت عملاً شاقّاً كما هي الحياة بكافّة تفاصيلها بالنسبة إلى بلبل.



أمر الطبيب المستخدمين بتغطية وجهه وحمله إلى البرّاد، طلب من بلبل التوقيع وأخذ الجثّة قبل ظهيرة الغد، وإلّا فسيضطرّون للتصرّف فيها بمعرفتهم، الأولويّة في برّاد المشفى المكتظ لجثث الجنود.

لم يحسَب بلبل يوماً أنّ موت أبيه سيكون كارثة، تمنّى في أعماقه لو كان يقيم في منطقة مغلقة تحت الحصار، أو مسافراً إلى مكان بعيد، سيتحلّل وقتها من مسؤوليّة ترتيب كلّ شيء، ويرمي بتنفيذ الوصيّة على كاهل حسين الّذي لن يتوانى عن تجاهلها. قبل موته بثلاثة أيّام أحضر بلبل والده آخر الليل إلى المشفى بعد اشتداد الألم، أشعره الجميع بأنّه محظوظ لعثوره على سيّارة أجرة قرب مطعم الفول الّذي لا يغلق أبوابه طوال الليل. أصبح قبول سائق تاكسي بقطع المدينة من شرقها إلى غربها، ووجود سرير شاغر في مشفى عمومي حظّاً يجب شكر الربّ عليه، بلبل شكر ربّه فعلاً، أعطى السائق كلّ ما طلبه لمساعدته في حمل أبيه إلى النقّالة، ولم يتركه إلّا بعد اطمئنانه لعدم بقائه في ممرّ المشفى، السائق أيضاً يعجبه الوجود في المشفى بدل الطرقات الخطرة ليلاً، لم يسأله بلبل لماذا لم يذهب إلى منزله، كان يخاف جوابه، كما فعل سائق سيّارة أجرة قبل مدّة حين سخر منه، وأخبره بالتفصيل عن منزله في زملكا الّذي قُصف وماتت زوجته تحت الركام، متسائلاً في نهاية الحديث عن أيّ منزل تتحدّث يا سيد؟

في الأشهر الأخيرة تحاشى بلبل الحديث مع أيّ شخص لا يعرفه، أصبح الخروج من المنزل عملاً شاقّاً، اكتفى بالذهاب إلى عملِه وقراءة الجرائد الرسميّة، في أيّام العطل يشاهد أفلام الأبيض والأسود المصريّة على قناة روتانا، يتحسّر على الزمن الجميل. لا يعرف لماذا يفعل ذلك، لكنّه تقليد ينجّيه من السؤال، الجميع يتحسّرون على الزمن الجميل. يقضي العطل الطويلة كالأعياد في صنع المخلّلات بأنواعها، تعجبه مهاراته الجديدة في المحافظة على حياته، رغم أنّه لا



يعرف ماذا يستطيع فعله في السنوات الباقية، لا يجرؤ على الاعتراف بأنّ الحياة هي مجموعة أفعال تافهة لا بدّ ستنتهي.

أخبره أحد أبناء جيرانهم، مساعد المهندس الّذي تحوّل إلى مقاتل في الجيش الحرّ، أنّ صحّة أبيه لم تعد تساعده على البقاء في البلدة المحاصرة، لم يستطع الحديث، ليس لتأثّره بتدهور صحّة أبيه، بل لخوفه من ضبطه متلبّساً بالحديث مع شخص مقيم في تلك البلدة. المتّصل أيضاً لم يكن يملك وقتاً، أخبره عن خطّتهم بإيصال الأستاذ إلى محطّة الوقود المهجورة على تخوم البلدة، وطلب منه القدوم الساعة السادسة مساءً لأخذه من هناك.

كانت الساعة الثالثة ظهراً، تصبّب عرقاً، لا يستطيع تبرير خطأ الردّ على رقم مجهول، ماذا لو كان الخطّ مراقباً؟ جزم في قرارة نفسه بمراقبة النظام لكلّ المكالمات الصادرة من تلك البلدة، يجب التفكير بالأعذار لارتكاب مثل هذا الخطأ. عادت إليه لحظات الشجاعة النادرة، وقرّر تناسي الموضوع، فكّر بقدرة حسين على مساعدته في مثل هذا الموقف، طلب رقمه وأصابه إحباط شديد حين سمع إشارة خارج التغطية، ما زال لديه المزيد من الوقت، لا بدّ من أنّ حسين سيردّ على هاتفه، جلس في مطعم شعبي في ساروجة، طلب وجبة فاصوليا وأرزّ، فكّر بما سيفعله، سيأتي أبوه للعيش معه في منزله الصغير، قد لا يحتمل الأب وجوده في حارة موالية للنظام.

بذل بلبل جهوداً كبيرة للحصول على ثقة سكّان الحيّ، بيانات هويّته الشخصيّة جعلت منه شخصاً مشبوهاً بقوّة، في السنوات الأربع الماضية أصبحت الهويّة الشخصيّة كارثة حقيقيّة. اختفى الآلاف دون أيّ أثر، فقط لانتمائهم إلى أمكنة معارضة، كما اختفى الكثير من الموالين في مناطق المعارضة، الخطف والفدية والاعتقالات



العشوائيّة مزدهرة، والردّ بالمثل وصل إلى ذروته، أصبحت حركة الأشخاص محسوبة بدقّة، أيّ خطأ قد يكون مكلفاً جداً.

تحاشى بلبل الخروج من المنزل، ينتظر باص الموظفين ويعود فيه، كما يفعل الكثيرون ممّن تشير هويّاتهم، وقيد نفوسهم، إلى أمكنة ملتهبة. تخلّى عن عاداته القليلة في الذهاب إلى المقهى كلّ يوم خميس، أو التسكّع في باب توما، تجدّد خوفه مرّة أخرى، واقتصرت علاقاته على زملائه في المؤسّسة، الّذين يكرّرون حديثهم نفسه عن غلاء الأسعار، وحين يتبادلون في ما بينهم بعض الشيفرات الّتي تشير إلى خسائر النظام، يتجاهل بلبل حديثهم ولا يشاركهم حتى التعليق المبهم، كأنّه لم يسمع، ويعود مرّة أخرى لأسئلته نفسها عن المخلّلات، متذمّراً من أسعار الباذنجان الغالية.

منذ ثلاثة أشهر قُرع باب منزله فجراً، دخل ثلاثة شباب مسلّحين من أبناء الحارة، يرافقهم المختار الّذي تعاطى معه ببرود ونكران. لم يسمحوا له بالاستفسار، قلبوا أغراض المنزل. لم يغفر له تعليقه صورة كبيرة للرئيس في صدر الصالون. شعر بإهانة كبيرة لكنّه بقي صامتاً، قبل فترة أصابه هاجس نسيان شيء قد يؤذيه، نظف منزله من أيّ شيء مشبوه، ألغى من التلفزيون تردّد القنوات «المغرضة» كما يسمّيها أنصار النظام، كقناتي الجزيرة والعربيّة، ألغى قنوات المعارضة، ووضع على «القائمة المفضّلة» كلّ القنوات المؤيّدة وعلى رأسها قناة المنار والميادين التابعتان لحزب الله وقناة العالم الإيرانيّة والإخباريّة السوريّة، وناشيونال جيوغرافيك وقنوات الطبخ والمنوّعات، تأكّد عشرات المرّات من نظافة المنزل من أيّ شيء يجعله مشبوهاً. تمنّى لو استطاع تغيير رقم قيده ومكان ميلاده. فتّشوا المنزل بدقّة، غادروه بدون اعتذار، تركوه غارقاً وسط فوضى الأشياء القديمة، تجاهل شتائمهم لأهل البلدة الّتي عاش فيها أغلب



سنوات عمره، قال في نفسه إنّهم يستفزّونه ليردّ عليهم فيقتلوه، بالتأكيد سيذهب دمه هدراً، ليس شهيداً ليدافع عنه مَن قَبِل بأن يُشتَموا أمامه بكلّ هذه الألفاظ الجارحة، ثمّ هنّأ نفسه لنجاحه في تجاوزه الامتحان للمرّة الألف. حصل على رضى غير كامل من جيرانه الفقراء، الّذين كانوا يشتمون بلدته بصوت عالٍ حين يعبر الشارع، اختار العيش في هذه الحارة الفقيرة، بعد طلاقه من هيام الّتي اشترطت عليه ترك أثاث المنزل كجزء من المؤخّر، مقابل تربيتها لولده الوحيد عبد اللطيف الّذي يحمل اسم أبيه كدلالة على رابطه القويّ مع العائلة.

في الحقيقة، كان سلوك بلبل تقليداً لسلوك والده ومحاولة للعيش وقتاً أطول في ظلّه. الرجل المحترم، المثقل بالمثاليّات، يعيش في ماضيه كجزء من زمن حالم، تعشّش فيه مفرداته وعاداته، يفاخر بانتمائه إلى زمن الأناقة والقيم الكبرى كما كان يسمّي الستينيّات، مضيفاً أنّه الزمن الجميل، بلبل يستعمل مفردات أبيه نفسها، خاصة حين يصف الأشياء ويتحدّث عن القيم، ما زال يذكر الحالة الهستيريّة الّتي انتابت الأب حين قال حسين ببرود زمن الستينيّات هو صورة فقط، وكلّ ما يقال عنه عبارة عن كذب يجب توقّفه، مضيفاً أنّه زمن كلّ هزائم الأمّة، غضب الأب يومها، لأوّل مرّة يعترض أحد أفراد عائلته على جمله المكرّرة، ويهين ذكرياته.

كلّما تقدّم الأب في العمر كان يزداد تمسّكاً بتفاصيل ذلك الزمن، طريقة تلميع حذائه، ربطة عنقه الأنيقة، طريقة كلامه المقتضبة والإصغاء باحترام، اللفتات الذكيّة ورواية النوادر حين يجتمع مع أصدقائه، تعنيه صفة الشخص الظريف صاحب الجلسة المفيدة والممتعة، يقدّس الواجبات، لم تشهد بلدة «س» جنازة لم يكن ضمن مشيّعيها، يتذكّر مناسبات أصدقائه، يقاسمهم المؤن



القليلة الّتي تأتيه من العنابيّة، وبالنسبة إلى طلابه كان رجلاً غريباً، محترماً، سكن بلدتهم منذ حوالى أربعين عاماً وأصبح واحداً منهم، أطلقوا عليه «العنابي» نسبة إلى قريته العنابيّة، لقب تناساه الجميع مع مرور الزمن، ليبقى اسمه الدائم الأستاذ عبد اللطيف.

لم يستطع بلبل الاتصال بحسين، شعر ببرودة في أقدامه، لم يعد هناك من خيار سوى ذهابه وحيداً، كثافة الحواجز وازدحامها لم يسمحا له بالتحكّم في الوقت، لكنّه وصل في الموعد، حين لمح أباه يستند إلى حائط محطّة الوقود المهجورة شعر بالخواء، كان شبه فاقد للوعي، خسر الكثير من وزنه، وجهه شاحب، من الواضح أنّه لم يأكل منذ أيّام كثيرة، رائحة كريهة تفوح من فمه، لكنّه حليق الذقن يرتدي ربطة عنق عريضة وثيابه نظيفة.

ابتسم الوالد حين رأى بلبل قادماً نحوه، تحسّس بلبل يديه، خرج من مكان ما مجموعة شباب مسلّحين عرف بعضهم، رفعوا أيديهم بالتحيّة، اطمأنّوا على رفيقهم ومضوا. رفض الأب تمديده في المقعد الخلفي للتاكسي، طلب بلبل منه عدم التحدّث مع السائق، قد يكون مخبراً، فهو يعرف أباه جيّداً، سيمتدح أهل بلدته، وقد يشتم النظام علانية، صمت بلبل وصلّى في قلبه لتمرّ هذه اللحظات على خير، سأله عن حاجاته من الأدوية، هزّ رأسه بالنفي، وعاد للنظر إلى جنود الحواجز بحقد واضح.

مدّده بلبل على السرير، وخرج للبحث عن طبيب. فكّر بأنّ أطبّاء الحارة قد يخبرون النظام، ويعتبرونه إرهابيّاً إذا ما عرفوا تشبّثه بالعيش في بلدته المحاصرة كلّ هذه السنوات. سمع عن طبيب تقع عيادته في الحارة الخلفيّة، كان قد سُجن في بداية الثورة، واشتبك مع أهالي الحارة رافضاً مغادرتها، ذهب إليه وشرح له نصف الحقيقة، كان شاباً لطيفاً ومتحمّساً، رافقه بعد فحص آخر مريض. في الطريق مرّر له بلبل



رسالة فهمها مباشرة، قال له إنّهما من بلدة «س» والآن نازحون في هذه الحارة، كان اسم البلدة كافياً لإثارة حماسة الطبيب الشاب.

بالغ الطبيب في عنايته، كان الأب يقول أبناء الثورة في كلّ مكان لذلك سننتصر، استغرب الطبيب وجود صورة الرئيس معلّقة في الصالون، لكنّه لم يعلّق في اليوم الأوّل. وفي اليوم الثاني شرح له بلبل وضع الحارة، بدا في وضعيّة ثوري متخفٍّ، لم يعجب الطبيب ذلك التخفّي، اعتبره تواطؤاً لكنّه تفهّم خوفه، قدّر لطفه حين أهدى له قطرميزَي مخلّل خيار وفليفلة، أتى الطبيب بنماذج أدوية مجّانيّة وأصبح رفيقاً للأب، يزوره يوميّاً ويتهامسان، تشتعل عيونهما حين يروي الأب لصديقه الطبيب قصصاً من داخل الحصار، يضحكان ويتحدّثان بلغة قويّة وأمل كبير بالنصر.

في اليوم الثالث عاد بلبل من الوظيفة، ولم يجد صورة الرئيس في مكانها على الجدار، لم يمنحه أبوه فرصة للسؤال، وبلبل لم يجرؤ على الاعتراض. أدخل الصورة إلى غرفة نومه، وفي الليل لم يستطع النوم، انتابته مشاعر غريبة، إنّها مجرد صورة، لكنّ وجودها في المكان نفسه ليلاً يثير في أعماقه هواجس التفكير مرّة أخرى في الخوف، غطّاها وركنها في زاوية بعيدة من الصالون، وراء خزانة الصحون الحديديّة، لم يجرؤ على رميها أو تمزيقها، سيحتاج إليها ما دام يعيش في هذا الحيّ. عدم احتجاج بلبل، وتجاهل أبيه للموضوع جعلا من الصورة شيئاً منسيّاً.

دأب بلبل على إغلاق النوافذ خوف تسرّب ضحكات الأب مع الطبيب إلى أيّ شخص قد يمرّ صدفة في الحارة، فيسمع حديثهما أو صوت الأغاني الثوريّة الّتي يترنّمان بها معاً، وهما يتبادلان أخبار الجبهات كلّ يوم، ويعلّقان على الأحداث السياسيّة. هما متّفقان على أنّها ثورة ضدّ العالم كلّه لا ضدّ النظام فقط. ما زال أبوه يحبّ



الكلمات الكبيرة، يسهب في إعادتها حين يصف لحظات الحصار القاتلة، الّتي اضطرّ فيها من بقي من سكّان إلى طبخ أوراق الشجر، والتهام الحشائش، صنعوا من الشعير والذرة خبزهم، وتقاسموا أقلّ القليل الباقي.

حديثهما عن النصر لم يعنِ لبلبل شيئاً، كان يفكّر فقط في خلاصه من ورطة مرض أبيه، اقترح مساعدته في الاغتسال لكنّه رفض، لا يحبّ صورة الرجل العاجز. تحاليل الدم أظهرت تقدّم المرض وأملاً ضعيفاً بالشفاء. منذ أشهر لم يتناول أدويته، لم يأكل أيّ شيء منذ عدّة أيّام. كان يروي لبلبل أيّام الحصار، كأنّه يطلب منه ألّا ينسى. وبلبل يشعر بنفسه شخصاً آخر يريد نسيان كلّ ما حدث خلال السنوات الأربع، كان هذا الأب يستحقّ ابن ثورة شجاعاً كالدكتور نزار. لم يُخفِ انتماءه إلى الثورة ورفض هجر البلد رغم اعتقاله وتعذيبه لمدّة ثلاثة أشهر لم يكن بلبل قادراً على سماعه يروي تفاصيلها للأب الّذي كان يبادله برواية الكثير من تفاصيل تعذيب المعتقلين الّذين كان يعرف الكثيرين منهم. يعود هؤلاء المعتقلون أكثر حقداً على النظام، كانوا يروون التفاصيل كأنّهم يريدون القول إنّ الانتقام أقلّ شيء ممكن فعله. كان الأب يسهب في الشرح أنّ كثيرين تحوّلوا داخل السجن من ثوّار سلميّين إلى مناصرين لأقسى أشكال العنف ضدّ النظام وجنوده، ويضيف: السجن قادر على قتلك، والشخص الآخر الّذي يخرج ليس أنت بالضرورة، رغم أنّ له عينيك وشكل تسريحة شعرك. قليلون حافظوا على رباطة جأشهم وعقلهم وأخلصوا لأفكارهم. الضغط الرهيب في تتالي قصص الأب المرويّة، جعل بلبل يريد التحوّل إلى أصمّ، يحتقر نفسه حين يتخلّى حتى عن سماع القصص. في الأسابيع الأخيرة تعايش مع أبيه، وبدأ يخاف من موته حقيقة. يوم دخوله إلى المشفى فكّر بلبل لأوّل مرّة في ورطة



الجثّة بعد الموت. لم تخطر له جدّية أبيه في تكرار انتزاع وعده الأكيد بتنفيذ وصيّته.

غادروا الحاجز الثالث بعد بلدة دير عطيّة، الطريق الموحش يوحي بأفكار سوداء، الليل هبط ولم يقطعوا سوى ربع الطريق، ما زالت العنابيّة بعيدة. ندم بلبل لأنّه لم يجب على مكالمات عديدة من الرقم نفسه الّذي أخبره بموعد خروج أبيه من بلدته «س». كان بلبل واثقاً، رفاقه لن يتركوه يُدفن بعيداً عنهم، من الممكن أخذه من أيّ مكان، بدأ بلبل يقتنع بأنّ أولاد الثورة يتغلغلون في كلّ الأمكنة، لديهم شيفرات سرّية يتفاهمون بها بسرعة، كانوا سيتدبّرون أمر دفنه، كان واثقاً بقدرتهم على أخذه من المشفى، ودفنه في القبر الّذي أشار إليه في المقبرة الجديدة حين كان يهندسها قريباً منهم، سيتنفّس موته بكلّ حرّية.

ماذا تعني جثّة الأب؟ كان السؤال قاسياً لكنّه حقيقيّ في هذا الليل. كانوا ثلاثتهم يفكّرون فيه، لكنّهم لا يملكون جواباً واضحاً. الصمت يخيّم على الميكروباص، حسين صامت يكتم غضبه، فاطمة تحاول ألّا تتنفّس كي يتناسيا وجودها. أصوات الصواريخ وقذائف الدبابات تقترب منهم، يقول حسين ببرود إنّهم يقصفون حمص ثمّ يصمت، تمنّوا معجزة تنقذهم من هذه الوحشة الّتي تحوّلت إلى خوف خفيّ يحفر في أعماقهم. فرصهم القليلة لتبادل الحديث تأتي في أوقات غير مناسبة، كانت دوماً تأتي حين يكون الجميع غير قادر على الكلام.

فتحت فاطمة النافذة، تسلّل هواء بارد، اقترحت كشف الأغطية عن الجثّة، لم يردّ أحد منهما، ولم تجرؤ على مدّ يدها ونزع البطّانيّات. نشّفت مياهاً تسرّبت إلى أرض الميكروباص من ألواح الثلج المربوطة إلى الجثّة. كانت خائفة، فكّرت برائحة عرق الموتى



المخيفة، كانت أصابع يديها ترتجف، فجأة قال حسين لا خيار لديهم سوى المبيت في بلدة «ص»، لا يعرفون الطريق الفرعي، والأوتوستراد بين حمص وحلب مغلق منذ أكثر من سنتين.

انعطف نحو بلدة «ص»، زاد من سرعة السيّارة وسط الظلام الدامس. الطريق مليء بالحفر، السيّارة مالت وكادت تنقلب، بلبل وفاطمة تمسّكا بقوّة، الجثّة تهتزّ ولا تستطيع التمسّك بأيّ شيء، غضب حسين كان واضحاً، وهو يحاول الاتصال بأصدقائه لتأمين مكان يبيتون فيه، تحدّث أكثر من مرّة بصوت مرتفع، توقّف على جانب الطريق، شتم خطوط الهاتف. أخبره بلبل ببرود ألّا يقلق بشأن مبيتهم، سيذهبون إلى بيت لميا، لمعت عينا فاطمة ونظرت إليه بتعاطف. صمت حسين، وبعد دقائق سأله كيف ستستقبلنا في منزل زوجها بعد هذه السنوات الطويلة. بلبل كان واثقاً من نفسه، اكتفى بالحديث مع لميا، أخبرها بصوت ثابت بوصولهم بعد ربع ساعة إلى بلدة «ص»، وبحاجتهم إلى مساعدتها. كريمة وطيّبة كما كانت دوماً، فكّر بلبل وهو يغلق الهاتف، رجتهم أن يحترسوا، وعدت بانتظارهم على بوّابة البلدة مع زوجها. سمعة حاجز مدخل البلدة سيّئة جداً مع الغرباء، أقدموا على تصفية مسافرين مضطرّين لعبور البلدة، أو خطفوا أولاد عائلات غنيّة وبادلوهم بفدى ماليّة.

شعر بلبل بقوّة غريبة، منحه صوتها طاقة كبيرة، شعر حسين بهزيمته، لم يتوقع احتياجه إلى لميا في يوم من الأيّام. استعاد بلبل صداقتها منذ سنوات قليلة، تعرّف إلى زوجها، وبذل جهداً كبيراً ليبدو واحداً من أصدقائهما، دون صفته كحبيب قديم يثير غيرة زوجها كما كان يعتقد.

في لقائهما الأوّل بعد سنوات عديدة من تخرّجهما، دعا لميا وزوجها زهير مع صديقين وزوجتيهما إلى عشاء في أحد المطاعم،



احتفلوا بلقائهم بعد سنوات طويلة، كانت هيام زوجة بلبل وزهير زوج لميا غريبين عن شلّة الجامعة، الّذين استعادوا قصص أصدقائهم في الجامعة بمرح، اكتشفوا في أعماقهم أنّهم جميعاً لم تكن لهم أيّ بصمة خاصّة في حياتهم الجامعيّة، لم يشاغبوا، لم يحتجّوا على قرار إداري، أو يوزّعوا مناشير أحزاب يساريّة أو يمينيّة، لم يجرّبوا الحشيش أو العيش على حافة المغامرة. كانوا جميعاً مهذّبين وضعفاء جداً، ألّفوا بعض القصص والبطولات الصغيرة، وتواطأوا في إخفاء حقيقة استعارتهم قصص زملائهم الآخرين.

بلبل ليس مصدر إزعاج لزوجها، هذا كلّ ما يريده في هذه اللحظة، لم يصبحا صديقين لكنّهما ليسا عدوّين أيضاً. كان بلبل يعتقد أنّ زهير رجل قويّ وسجين سياسيّ سابق، لن يهاب رجلاً مثله يخاف من ظلّه. تمنّى لو أغمض عينيه وأعاد ترتيب صوره مع لميا، القصائد الّتي كتبها لها، الرسائل الّتي لاحقها بها في العطلة الصيفيّة، يعتقد أنّها أخفتها، ولم ترم بها في المزبلة. كان يكتب لها بكلّ جوارحه. لو بقيت معه لكان شخصاً مختلفاً تماماً. كان يعرف في قرارة نفسه، ستحزن لميا كثيراً على وفاة أبيه، كانت تحبّه وبقيت صديقته الأثيرة، تزوره وتتّصل به لتطمئنّ عليه، تأتيه بالكتب وتقبل هداياه الخاصّة، كما بقيت صديقة أمّه الّتي حافظت على تقليد خاصّ بهما، تطبخ لها الملوخيّة، طبقها المفضّل، وهي دوماً تجد وقتاً قصيراً لزيارة أهل بلبل، كانت مرّات قليلة بعد تخرّجها، لكنّها كافية ليعبّروا عن احترامهم وحبّهم بعضهم لبعض، أمّه تصرّ على إهدائها قطرميز مخلل تشتهر بصنعه، ويسمّيه الجميع «معجزة أمّ نبيل».

الآن بلبل محشور في مقعده، تتداعى كلّ هذه التفاصيل من ذاكرته، ويكتشف أنّه استعار المخلّل من تاريخ طفولته أيضاً، من إتقان أمّه لصنعه، كلّ ما يفعله كان تقليداً لحياة العائلة وتفاصيلها.



شيء مؤلم اكتشاف المرء أنّه نسخة زائدة عن عائلته، يكرّر في حياته المديدة الأفعال الّتي كرهها من قبل.

قال بلبل في سرّه إنّها ملاك، ستدافع عن جثّة أبيه بكلّ قوة. جنود حاجز البلدة «ص» كانوا منزعجين، لم يستطيعوا التحقيق مع هؤلاء الغرباء الّذين يبدون وجبة دسمة لأيّ حاجز، نبّهت زهير إلى نوع هويّاتهم، تفهّم زهير حساسيّة الموضوع، اصطحب عمّه الّذي تربطه علاقات قويّة برجال متنفّذين في النظام، توسّط لمرورهم بسرعة من الحاجز، شرح بلبل مشكلتهم بسرعة، لخّص لهم الازدحام على الحواجز، وصعوبة الخروج من دمشق، أضاف أنّهم مسافرون منذ عشر ساعات. عناصر الحاجز الّذين هم عبارة عن خليط من عناصر مخابرات، ومتطوّعين من أبناء البلدة، لم يتعاطفوا معهم ولم يدقّقوا كثيراً في الأوراق، اكتفوا بشهادة الوفاة، وسمحوا بمرورهم دون شتمهم. هم لديهم، على أقلّ تقدير، كلّ المؤهّلات اللازمة ليشتمهم أيّ حاجز لمخابرات النظام أو للمجموعات الطائفيّة الموالية للنظام، حتى لو لم يكن مكلّفاً بصفة رسميّة.

في الظلام لم يستطيعوا ملاحظة ما طرأ على الجثّة من تبدّلات، لم تتماسك لميا حين رأتها بعد كلّ هذه المشقّة، فوجئ الجميع بدموعها القويّة، بكاؤها أثار ضعفهم، حسين بكى أيضاً، فاطمة وجدتها فرصة، وانخرطت مرّة أخرى في نوبة بكاء طويلة. زهير تصرّف بسرعة، قادهم إلى المشفى الوطنيّ الصغير، بواسطة عمّه، سمح المدير بمبيت الجثّة ليلة في البراد، الحمل الفظيع أزيح عن كاهل الجميع، لم ينظروا إلى الجثّة، خافوا من اكتشاف أنّها تشوّهت إلى درجة موافقتهم على دفنها في أيّ حفرة، أو رميها لكلاب البراري الجائعة.

لميا نحيلة القدّ، شعرها خرنوبي، طويل وكثيف. وجهها بريء وابتسامتها توحي بطمأنينة عميقة، لا تعرف الشرّ، خلقت للعطاء



دون مقابل. الآن وبعد خمس وعشرين سنة، يعتقد بلبل أنّها تنظر إليه كرجل مريض بحاجة دوماً إلى رعايتها. حين يبتعد عنها وتقرأ كلماته، تعتقد أنّ شخصاً آخراً يكتب لها هذه النصوص المليئة بالتورية، كانت الطريقة الوحيدة ليستطيع القول إنّه يعبدها، كتب لها أنّ مقعدها الشاغر خطفته النسور، ولا يليق بمقعد الإلهة ملامسة بشر فانين. ما زال يحفظ بعض الرسائل بصماً، لكثرة قراءتها وتردّده في إرسالها. هي لا تعرف، ما زال يحتفظ برسائل لم يرسلها لاحتوائها على تلميحات جنسيّة واضحة، تعبّر عن شهوته وشوقه إلى جسدها.

اعترفت له مرّة بانتظارها رسائله في العطلة الصيفيّة، كانت تشعر بسعادة كبيرة في قيظ بلدتها «ص» حين يقرع باب بيت أهلها ساعي البريد، ويلوّح لها بالرسالة مبتسماً. تصبّب عرقاً ولم يستطع الاعتراف لها بأنّه يحبّها إلى درجة البكاء، واليوم اعتقد بأنّ لميا هي الحقيقة الوحيدة الّتي تستطيع إنقاذ حياته، وتحويله إلى كائن أقلّ هشاشة.

كان يخاف عليها من الأذى، لم يستطع سوى تخيّل مشهد فراقهما، لا يعرف لماذا كان متأكداً من النهاية، ستقول له أحبّك ولكنّي لا أستطيع الزواج برجل مسلم. لم يستمع إلى نصائح رفاقهما وتشجيعهم ليعترف لها بالحبّ، قالوا إنّ الحبّ أهم من الزواج، كلّ شيء يأتي متأخّراً، لكنّه في هذه الليلة شعر بأنّ تصرّفه كان صحيحاً، لم تكن مسيحيّة متشدّدة، لكنّها في النهاية لا تريد إغضاب عائلتها الريفيّة الطيّبة، الّتي لن تستطيع دفع أثمان زواجهما، أعجبه هذا الاستنتاج في النهاية، وشعر بالرضى عن تصرّفه الخائب طوال سنوات.

كان زوجها زهير يتصرّف بشهامة ليست غريبة عنه، لم ينتبه بلبل كم كانت لميا متعبة إلّا حين فتحت باب بيتها ودخلوا برفقتها، ندم لأنّهم زادوا من أعبائها. أكثر من ثلاثين طفلاً يتناولون العشاء، نساء ورجال يدخلون ويخرجون من الغرف الأربع المفتوحة على أرض



دار كبيرة، تستضيف نازحين، الأمر لا يحتاج إلى شرح. لم يستغرب أحد حضور أشخاص جدد، اعتادوا دخول أناس تقطّعت بهم السبل في أيّ وقت. زهير وفّر عليهم الشرح، قدمهم للرجال كأصدقاء قدامى من بلدة «س»، وذاهبون لدفن جثّة أبيهم في العنابيّة، ممتدحاً الأب وواصفاً إيّاه بالثائر الكبير. وقع أسماء المنطقتين كان كفيلاً بشرح هويّتهم.

نظرات لميا المليئة بالتعاطف إلى بلبل أثّرت فيه كثيراً، كفكفت دموعها واصطحبت فاطمة إلى غرفة النساء. كان منظرهم مزرياً، لكنّ أحداً لم يلاحظه أو يستغربه. كلّهم مرّوا في المحنة نفسها، شدّت لميا على يدي بلبل بإعجاب، لتنفيذه وصيّة أبيه الّذي وصفته بالرجل العظيم، بالشهيد والثائر، لم تمنحه وقتاً ليشرح لها كلّ ما قاسوه في الطريق، أكملت أنّها تطبخ لستّ عائلات وثلاثين طفلاً، تشدّ من أزرهم كي تشعرهم بالسعادة على طريقتها، زهير كان لطيفاً وشكرهم لطلبهم مساعدتهما. حقّاً هم بشر من عصر آخر، هكذا فكّر بلبل وهو يلاحظ دأب زهير ولميا على متابعة شؤون جميع الضيوف بطيبة خاطر. لا يشبهون جيرانه الّذين طردوا ثلاث عائلات نازحة من مخيّم اليرموك، بحجّة أنّهم إرهابيّون متشدّدون لمجرّد ارتداء النساء الحجاب. كان منظر العائلات المطرودة يدمي القلب، منظر نساء الحارة الفقيرات يثير الغثيان، وهنّ يحرّضن أبناءهنّ على رجم النازحين بالحجارة، يشتمن الخونة الّذين تخلّوا عن نظام آواهم وربّاهم وعلّمهم في مدارسه.

حسين حسم الموضوع ببساطة، طلب من لميا بطّانيّتين ومخدّة، انسلّ بعد العشاء إلى السيّارة، فرش على أرضيّتها وغطّ في نوم عميق. اقترح زهير على بلبل الغارق في خجله الاستحمام، لكنّه أضاف بمرح يجب تسخين الماء في البرميل على الحطب، لا غاز،



والكهرباء تأتي ساعتين أو ثلاثاً في اليوم، شكره بلبل وطلب مكاناً يتمدّد فيه، كان متعباً إلى درجة أنّه لم يعد يستوعب ما يقوله الرجال الّذين يقضون وقتهم في تناقل الأخبار، والاتّصال بمن بقي في أحياء حمص المحاصرة. لم تثر قصة جثّة الأب فيهم أيّ شيء، شاهدوا الكثير من جثث أحبّتهم، والموت كان قريباً منهم إلى درجة أنّهم لم يعودوا يكترثون له.

عرض زهير بكرم شديد على بلبل النوم على فراشهما الممدود في زاوية المطبخ، لكنّ بلبل اختار النوم على بطّانيّة طواها مرّتين، واكتفى ببطّانيّة واحدة للغطاء. فكّر بأنّهما ينامان هنا، بعد أن منحا كلّ ما لديهما لنازحين حماصنة لا يعرفونهم. كرّرت لميا عبارة الأب بصوت منخفض: «أبناء الثورة في كلّ مكان». أغلق بلبل الباب وحاول النوم، كان البرد شديداً والدفء يتسرّب إلى جسمه بطيئاً، حاول استبعاد الأفكار السيّئة، لميا تنام هنا، على هذا الفراش الممدود في زاوية من زوايا المطبخ الكبير، تاركة غرفة نومها للأطفال، هنا تحلّق أنفاسها كلّ ليلة... تجاهل هذه الأفكار، لم يستطع فهم رغبته الجنسيّة الّتي استيقظت، فكّر بطريقة يسترخي بها، ولا يشعر بذنب خيانة رجل وامرأة عاملاه بكلّ كرم. التوتّر الفظيع الّذي شعر به كاد يقتله، لم يجد وسيلة للنوم، كلّ حواسّه استفزّت، تمنّى لو يبكي، سيريحه البكاء، يغسل أعماقه، لن يسأل أحد رجلاً يحمل جثّة أبيه لماذا يبكي. كانت رائحة لميا قويّة تنبعث من الفراش المجاور الّذي لا يفصله عنه أكثر من عشرة سنتمترات. غمر رأسه بالبطانيّة، سمع دقّات مطرقة في رأسه، خاف أن يموت هنا، وإن كان قد تشهّى الموت هنا، لميا ستدفنه بيديها الرقيقتين، ستكون مأساة رهيبة لها. الساعة تجاوزت الحادية عشرة ليلاً، ما زالت الأصوات المتداخلة قادمة من الغرفة الكبيرة الّتي يسهرون فيها، صوت ضحكات عالية



تأتيه من بعيد. لم يجد سوى وسيلة واحدة للاسترخاء، أغمض عينيه وحاول إعادة ترتيب صوره مع لميا، ذات ليلة تجسّس عليها فجراً وهي نائمة في غرفة فاطمة، كانت تقدّم موادّ الدورة التكميليّة، وأقنعتها أمّه بأن تسمح لها بالاعتناء بها، أمرتها بترك غرفتها في دير الراهبات، كانت كملاك بريء في السرير، مكشوفة الساقين ترتدي قميص نوم قطنيّاً قصيراً. كان نهدها مشدوداً وطيف ابتسامة على وجهها، نهض بلبل مسرعاً، وفي داخله إحساس رهيب بالعار، خرج من المطبخ، بهدوء أشعل سيجارة، وبدأ يشعر براحة كبيرة. استبعد فكرة تأنيب ضميره، سينام، يريد النوم ليستطيع الوصول بجثّة أبيه إلى العنابيّة، ومن هناك سيعبر الحدود إلى تركيا، ولن يعود إلى هذه البلاد. أعجبته الفكرة الجديدة، بدأت الأصوات تأتيه بعيدة، غفا لكنّ نومه لم يطل سوى ساعتين.

استيقظ فزعاً على يد تهزّه بقوة، حسين واقف قرب رأسه يخبره برمي الممرّضين جثّة أبيهما إلى الشارع. كانت لميا تنتظرهما في الميكروباص، قلقة وغاضبة، اتّصلوا بها لتأتي وتأخذ الجثّة لأنّ جثث جنودٍ مقتولين في معركة قريبة وصلت إلى المشفى الوطني. سبقهم زهير إلى هناك، سمع الجميع شجاره مع أحد الممرّضين، كان الممرّض يشتم الأب، دخل بلبل إلى المشرحة للتوقيع على تسلّم جثّة أبيه، الّتي تعاون حسين مع زهير في إعادتها إلى الميكروباص. كان المنظر مروّعاً، أكثر من أربعين جثّة في ملابس عسكريّة مموّهة، جثث فقدت نصفها السفلي، وأخرى فقدت نصف الرأس، ضابط غاضب يتحدّث مع أحد ما، يطلب سيّارات إسعاف من مشفى حمص. أصيب بلبل بنوبة غثيان، وسط الفوضى استطاع الوصول إلى المكتب، لم يفهم الممرّض طلبه، سأل بلبل عن الطبيب المسؤول، كان الممرّضون يفتحون البراد، ويكدّسون الجثث بعضها فوق بعض



كصناديق الليمون، إنّه برّاد صغير لا يستوعب هذا العدد الكبير من القتلى. بحث بلبل في أوراق موجودة على طاولة المكتب، وجد ورقة تسلّم جثّة أبيه، بحث في السجلّ الكبير، وقّع بقرب اسم أبيه باسمه الكامل على التسلّم، وغادر كهارب من الجحيم.

الخوف تلبّسه، قد يقتلونه إذا طلبوا هويّته في هذه اللحظة الغاضبة. في الطابق الأرضي للمشفى، كان عدد من سكّان البلدة والقرى المجاورة يبحثون عن جثث ذويهم وأبنائهم الّذين ماتوا هذه الليلة، الممرّض ما زال غاضباً يشتم أباه ويصفه بالإرهابي، يهدّد زهير ولميا ويشتم عائلتهما. بسرعة دخل الجميع إلى الميكروباص المستعدّ للانطلاق. كانت لميا حزينة، تنظر إلى وجه الأب الميت الّذي بدأ ينتفخ، ألوان جلده تغيّرت إلى الأزرق والأخضر القريب من العفن. شربوا قهوة، وكانت لميا تعيد تكفينه، أخذت البطّانيّات الّتي ابتلّت بألواح الثلج، والرائحة النتنة، بدّلتها ببطانيات نظيفة، وضعت أغصان ريحان قرب رأسه، عطّرته وتركت لفاطمة زجاجة كولونيا كبيرة لترشّه بين الحين والآخر، ويحافظ على رائحته عطرة. قرب رأس الأب الميت شربوا القهوة بصمت هم الخمسة، وانتظروا الفجر.




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الثاني

باقة ورد تطفو على صفحة نهر

فجراً، تهادت السيّارة بعيداً عن البلدة.

الهواء بارد، رائحة الكولونيا فاحت في السيّارة، جعلتهم رائقي المزاج. إحساسهم بامتلاك النهار بأكمله جعلهم متأكّدين من وصولهم إلى العنابيّة قبل حلول الليل، الطريق ضيّق، الباصات الّتي عبرت بجانبهم جعلتهم أقلّ وحشة وخوفاً، ليسوا وحيدين في هذا العراء. منظر الركّاب مثير للشفقة، يبدو من وجوههم أنّهم مسافرون منذ وقت طويل، أسمالهم فقيرة، واليأس يخيّم على وجوههم، وهم ينظرون إلى الطريق. أغلب الباصات قديمة، الكثير من زجاجها محطّم، وعلى ظهرها حُزمت أمتعة بشر يهجرون البلد نحو جهة أكثر أمناً. هروب جماعي لمئات الآلاف من سكّان الشمال والشرق نحو جهات مجهولة.

أغمض بلبل عينيه مسترخياً، النسمات الباردة أنعشته، أيقظت فيه الحنين لأيّامه القديمة مع لميا. شعر بفخر خفيّ حين كانت تنظر إليه بمودّة لتنفيذه وصيّة أبيه، أخبرها بكلّ قوّة أنّه سيدفنه قرب عمّته ليلى برغم خطورة السفر. كانت لميا تعرف تفاصيل قليلة عنها، سينفّذ رغبة أبيه الأخيرة حتى لو دفع حياته ثمناً. بدا أمام لميا غير



مبالٍ بحياته، أي رجلاً شجاعاً. لم تستغرب فعله، كان دوماً يفاجئها، يقوم بأفعال حمقاء لا أحد يصدّق قدرته على القيام بها.

حين كان زهير في السجن، ولا أحد يعرف مكانه، ذهب بلبل لمقابلة ضابط متنفّذ قريب لأحد أصدقائه، سأله مباشرة عن زهير، لم ينسَ نظرات ذلك الضابط المتشكّكة إليه، كأنّه يستفسر عن طبيعة العلاقة بينه وبين زهير الّذي لم يكن يعرفه. كان من الممكن أن يودي به هذا السؤال إلى جحيم لا يعرف أحد قراراً له. ما زالت لميا تتذكّر حين ماتت والدتها ليلاً، فوجئت قبل الفجر برؤيته يدخل إلى المنزل، يريد المساعدة في دفنها، سافر ليلاً رغم صعوبة وجود مواصلات في مثل هذا الوقت. من أجلها فعل الكثير من الأشياء، وبعد نظرات الامتنان تلك، شعر كأنّه ينفّذ وصيّة أبيه أيضاً من أجلها فقط.

بالنسبة إلى بلبل، كانت لميا من الأشخاص القلائل، وربما الوحيدة، الّتي تمنحه شجاعة ارتكاب حماقة، هي لم تكن تعرف، لكنّ الكثير من حماقاته كانت من أجل الكلمات القليلة الّتي كانت تدافع بها عنه، واصفةً إيّاه بالمتهوّر، بينما يصفه باقي الأصدقاء بالمتردّد والجبان. كلماتها عن شجاعته المنقوصة ساعدته على ارتكاب معاصٍ قليلة لكنّها لا تخطر على بال أحد، وبرغم كلّ شيء لم يجرؤ على مصارحتها بعشقه لها. كانت ركبتاه ترتجفان حين يفكّر بأنّها ستقول له لقد ضيّعنا اللحظة المناسبة منذ زمن بعيد.

لحظة المكاشفة في الحبّ تشبه باقة ورد تطفو على صفحة نهر، يجب التقاطها في الوقت المناسب، النهر سيجرفها ولن تنتظر طويلاً، هي لحظة مكثّفة للاعتراف بالرغبات العميقة. كثيراً ما رأى بلبل باقة الورد طافية، ساكنة تتأرجح بنعومة قريباً من يده، بمتناولها. تكون لميا هناك، تنتظر أن يقول أيّ شيء، خاصّة بعد عودتها من العطل الطويلة، لكنّه يبقى صامتاً كعادته، أو يقترح الذهاب للسير في



شوارع باب توما، فيعود جبل الثرثرة بينهما من حيث توقف، بينما يجرف النهر باقة الورد بعيداً.

تُفاجأ برسائله تسبقها إلى بلدتها، يكتب لها عن أشواقه، يخبرها أنّ سماع صوت خطواتها على الطريق هو سعادته. يصف حقيبتها ويستعير من قصائد رياض صالح الحسين الكثير من المقاطع، يخبرها أنّه من أجلها أمس قرأ هذه القصيدة، من أجلها ذهب إلى مقصف الكلّية الخاوي، وجلس إلى مقعدهما في الحديقة. في العطل الطويلة تردّ على رسائله، تبادله الشوق، ولا تخفي سعادتها بكلّ التفاصيل الّتي يكتبها. أحياناً تضع بين أوراق الرسائل القليل من الزهور البرّية، يقرأ رسائلها عشرات المرّات، يحتفظ بها في مكان خاصّ من خزانته، خشية وقوعها بين يدي أحد. بالنسبة إليه، هذه ليست رسائل بل سرّ كبير يجب عدم فضحه، تشبه الأيقونات العظيمة الّتي تخبّئها الأديرة في أقبية عميقة، لا يجوز المساس بها قبل مئات السنين. الزمن بمروره يضفي سحراً غامضاً على الأشياء، كذلك أراد لرسائلها أن تصبح مجموعة أيقونات، يكتشفها بالصدفة أبناؤه بعد زمن طويل، فيعيدون رسم زمنه وصورته من جديد.

مئات المرّات أضاع فرصة التقاط باقة الورد القريبة منه، كان في أعماقه يعتقد أنّها إلهة تستحقّ العبادة، يكفيه لمسة منها، لا يتخيّلها زوجة تقطع شرائح البصل، وتفوح رائحة الطبخ من ثيابها، لقد ضاع كلّ شيء الآن، ما بقي من علاقتهما يكفيه، نظرتها الرائعة تشبه نظرة ملاك، تمدّ يدها لتنقذ غرقى، وبشراً لم يعد لديهم أيّ أمل سوى أصابعها الرقيقة تمسح على رؤوسهم وتمنحهم الحياة.

أقنع نفسه، مجرّد الحفاظ على صداقتهما معجزة تستوجب شكر الربّ عليها. كان ينتظر زيارتها لدمشق، يصحبها إلى المطاعم الّتي تحبّ، أحياناً يصحبها عن قصد إلى أمكنة كان فيها قريباً من



مدّ يده إلى يدها والضغط على كفّها. تفهم دلالات رسائله المتأخرة، تجامله، لكنّ الصمت الّذي يخيّم عليهما يتيح لهما الحفاظ على مسافة مع الماضي، يعودان إلى حديثهما المفضّل، يتحدّث وهي تستمع إليه، يشكو من زوجته الّتي تعتبر تغيير كنبة في البيت أفضل من الصعود إلى سقف العالم والنظر من هناك إلى ذلك العماء. يحدّثها عن رائحتها البغيضة، وقسوتها حين تعامله بدون اكتراث، يتشكّى من حياته الجنسيّة معها، هي الّتي تسمّي العمليّة الجنسيّة فرضاً مدرسيّاً وهي تضحك. يختتم دوماً حديثه بالندم لزواجه بامرأة لا تعرف قصائد رياض الصالح الحسين، وتعيد سرد نكات الموظفين السخيفة الّتي يروونها في يومهم البليد. يصف أسنانها الصفراء وقائمة الطلبات الّتي لا تنتهي، إصلاح خزان المياه، تأمين الوقود قبل قدوم الشتاء، دعوة أختها وزوجها إلى العشاء. يصف جلستهم هم الأربعة وصوت عديله الخشن الّذي يتحدّث دائماً عن أسعار البيوت، ويختم السهرة بنصيحة يوجّهها الى بلبل بضرورة إقناع أبيه ببيع المنزل الكبير، أو هدمه لبناء بناية وبيع شققها. لا يعرف بلبل كيفية التخلّص من هذه الورطة، لكنّ صبره لم ينفد مرّة واحدة، بقي ذلك الرجل اللطيف الّذي يسمح لعديل تافه بأن يبدو ذكيّاً ويوجّه له النصح باستمرار حول ترتيب شؤون حياته.

يفكّر بلبل الآن وهو ينظر إلى أبيه الملفوف بكفن، أنّه غير نادم لأنّه لم يقنعه ببيع المنزل الّذي تحبّ لميا وروده، وتقضي ساعات تشارك أباه ترتيب أحواضها، تتبادل معه الشتول، يمارس الاثنان سعادة لا توصف، تشاركهما فيها أمّه المولعة إلى حدّ الهوس بنباتاتها. كثيراً ما كان بلبل يراقب أباه وأمّه يقضيان وقتاً طويلاً في حديقتهما، يتمهّلان في قطاف شجرات الزيتون الثلاث، يتصرّفان كعمّال قطاف زيتون موسميّين، يتناولان فطورهما تحت الشجرة،



ويتحدثان عن الكمّيات الّتي سيهديانها لأصدقائهما. بلبل يخبر لميا بأنّ ورود البيت هي سرّ الحب بين أبيه وأمّه، كان يقصد بقوله إنّه سرّ حبّه لها أو أحد الأسرار، لم يجرؤ على إخبارها كيف أنّه يتشمّم شجيرات الورد الّتي تقلّمها أو تلمسها.

الكثير من الأشياء الّتي يقولها بلبل لم تأخذها لميا على محمل الجدّ، ورغم ذلك كانت تستمع إليه بشغف. إنّه رجل مختلف حين يتحدّث إليها، تلتمع عيناه، ويشرق وجهه، لا يريد لأيّ شخص الاستماع إليهما، وهي تعرف أنّه قد جامل عديله، لم يحتجّ أو يناقش زوجته، بل لبّى كلّ طلباتها، لم يكترث إن كانت تحبّ قصائد رياض الصالح الحسين أم لا. في الأيّام الأخيرة بدأت تعرف أنّ السنوات الّتي انتظرت فيها التقاطه باقة الورد الطافية على صفحة النهر قد انتهت، لكنّها رغم يقينها بعدم حدوث أيّ شيء، لم تخفِ سعادتها وشوقها إلى رسائله.

حين كان زهير في السجن كانت لميا تزور دمشق، تصرّ على قضاء وقت طويل مع بلبل، تستمع إلى شكواه، لم تكن تريد الانتقام من حياته البائسة، بالعكس تماماً تشعر بتعاطف أكبر مع صديقها القديم، تعجبها في تلك اللحظات صورة الملاك الّتي يرسمها لها بلبل، كما تعجبه صورة الرجل الشجاع الأحمق المجنون الّتي ترسمها له، تسهب في الإصغاء، لا تتشكّى، وتبدو قويّة، لا تريد من زهير تقديم أيّ تنازلات مقابل حريّته. بجمل قليلة تختصر مضايقات رجال المخابرات، وتحرّشهم بها في وظيفتها ومحيطها الاجتماعي الّذي لا يقلّ بؤساً عن عالم زوجة بلبل. لا تخبره أنّها أيضاً تروي النكات الّتي يردّدها كلّ الموظفين البائسين، وأنّ أثوابها المنزليّة غارقة في رائحة البصل، وكثيراً ما تذهب في مشوار خاصّ لمساعدة صديقاتها في تحضير المؤن، كما لا تخبره بأنّها منذ زمن بعيد لم تعد تقرأ قصائد رياض صالح الحسين، الّذي كانت دواوينه لا تفارق حقيبتها.



بعد تخرّجهما من الجامعة، وعودتها إلى بلدتها، وزواجها بزهير، تباعدت زيارات لميا وفقدت كلّ اهتمامها بتلك الشجيرات، كما فقد الأب اهتمامه بها بعد موت زوجته. ذبلت الورود وماتت واحدة بعد أخرى، لكنّ بلبل بقي يتشمّم شجيرات الورد التي قلّمتها لميا ذات يوم.

كان بلبل يرى أباه ينظر بأسى إلى الحديقة الّتي تغيّر شكلها، حسرة كبيرة في قلبه، أصبحت بالنسبة إليه مكاناً لا يوحي إلّا بالفقدان، جزءاً من زمن سعيد انتهى. بعد موت زوجته لم يعد تعنيه الكثير من التفاصيل، الأمكنة فقدت بريقها. رفض اقتراح فاطمة بتنظيف الخزانة من أثواب أمّها وأشيائها الكثيرة، بدأ يتشكّك في إمكانيّة فعل فاطمة ذلك في غيابه، أصبح يبالغ في تشكّكه حين تزوره فاطمة، يقفل باب الغرفة ويضع المفتاح في جيبه، لا يسمح لأحد بتنظيفها إلّا بحضوره، كانت إشارة للجميع بألّا يفسدوا ذكرياته، أو هكذا بدت لهم الأمور. يقضي وقتاً طويلاً في قراءة كتب التاريخ، يجلس أمام التلفزيون صامتاً. لقد تغيّر كثيراً، خمس سنوات قضاها مستجدياً الموت، كأنّهما تعاهدا سرّاً بموتهما معاً، يشعر بخذلانها، تركها تموت ببساطة، حاول الموت لكنّ الموت لم يُجاره في رغبته، هكذا بدت الأمور بالنسبة إلى جميع من يعرفه. بعد عودته من دفن زوجته لم يفصح عبد اللطيف عن رغباته المدفونة، لم يذكرها كثيراً، لا يسهب في سرد تفاصيل حياته معها، كأنّها لم تكن من مفردات ماضيه السعيد.

لم يكن لدى أحد أيّ شكّ في حبّ هذا الرجل الّذي اقترب من السبعين لزوجته، كلّ شيء يوحي بذلك، شجاراتهما القليلة، والتصاق أحدهما بالآخر، صورة العائلة الّتي تشبه كلّ العائلات السعيدة كانت ترافقهما أينما ذهبا، لكنّ بلبل فكّر كثيراً بأنّ المعنى الحقيقي للحبّ



هو ما نفقده وليس ما نعيشه. تجلّت له كلّ الأفكار واضحة حين عاد بأبيه إلى منزله، نظر إليه متمهّلاً، كاد يقول هذا الرجل ليس أبي، آثار الجوع تركت ندوبها على جسده الهرم، لكنّ عينيه تبرقان بشكل غريب. لم ينتظر أبوه كثيراً ليخبره أنّه وزّع ثياب أمّه على من بقي من سكّان رغم الحصار. حديقة المنزل عادت إلى روعتها، أصبحت حديقة للريحان والحبق فقط، شجرات الزيتون الثلاث استطاعت الصمود وهرمت أكثر، لا شيء سوى الحبق، مضيفاً «نيفين والشهداء يحبّون الحبق»، ولم يمهله للسؤال، أخبره بلهجة حياديّة بزواجه بنيفين، وهي الّتي دفعت به للخروج من المدينة المحاصرة، قالت له بلهجة حازمة اخرج من هذه الأرض المقدّسة، صمت الأب طويلاً قبل أن يتدارك أسئلة بلبل الّتي تركها لأيّام مقبلة، وبلبل شعر بخوف شديد ولم يستوعب ما قاله أبوه في تلك الليلة.

تساءل في اليوم التالي عن علاقة نيفين بالشهداء والحبق، قال للطبيب الّذي رافقه إنّ أباه يهذي قليلاً، لكنّ الطبيب اكتشف أنّ مريضه الراقد على فراش الموت يملك ذاكرة قويّة ولا يهذي، تفهّم بلبل توزيع أبيه ثياب أمه، ماذا يفعل رجل على حافة الموت بثياب امرأة ماتت منذ سنوات عديدة؟ المحاصرون تقاسموا كلّ ما يؤكل ويُلبس وما يملكون لتستمرّ حياتهم، لكنّ أباه فاجأه حين أضاف في الليلة التالية أنّ الحبّ الّذي يجرف كلّ الماضي دفعة واحدة يجب فتح كلّ الأبواب له، ومساعدته على غسل أعماقنا، واقتلاع كلّ الأغصان اليابسة الّتي لم تعد تورق. اقتلاع الماضي المعطوب دفعة واحدة، ورميه في سلّة المهملات عذاب هائل، لكنّه ضرورة لالتقاط باقة الورد الطافية على صفحة النهر والعبور معها بطمأنينة إلى الضفّة الأخرى.

كان الأب يتحدّث بجمل واضحة لكنّها متقطّعة، كأنّه يعاني من فقدان جزئي للذاكرة، أو يعيد ترتيب فوضى حياته الصاخبة في



السنوات الأربع الماضية، بلبل يستمع والغصّة تخنقه، اعتبر ثياب أمّه شأناً شخصياً يخصّ أباه، بمحض إرادته ترك كلّ الأشياء لفاطمة وحسين. ذكرى لميا لا تفارقه، ما بقي من ذكرياته معها يكفي لعمر مديد، شعر بخواء ولم ينم ليلتها، فكّر بالرسائل الّتي يحتفظ بها، في الأيّام التالية شعر بتعاطف مع أبيه الّذي أخفى ألمه الكبير سنوات طويلة.

قبل أربعين سنة كانت نيفين فتاة شابّة وحلوة، دخلت إلى غرفة المدرّسين، قدّمت نفسها ببساطة كمعلمة مؤقّتة لمادّة الرسم، كان عبد اللطيف ينظر إليها بشغف كبير أحرجها، كان يبحث عن حبّ من النظرة الأولى، واعتقد أنّه وجده أخيراً، بعد أيّام أفصحت نيفين عن مكنوناتها، لا أسرار تخفيها عن المتطفّلين، طالبة جامعيّة في كلّية الفنون الجميلة، تُدرّس الرسم لتغطية مصاريف دراستها في دمشق، والدها مدرّس رياضيّات وأمّها معلّمة ابتدائي من الميادين، أهلها يقطنون بلدة الموحسن التابعة لدير الزور والّتي كانت تُسمّى موسكو الصغرى، اختارت نيفين السكن في بيت صغير يقع في بساتين البلدة «س»، تعاملت مع طلّابها برقّة كبيرة. عبد اللطيف اختار لحظات خروجها ودخولها إلى المدرسة ليعترضها محاولاً اختراع أيّ حديث، حدّثها عن جغرافية الفرات وتاريخه، كانت نيفين تردّ عليه بلطف كبير مؤكّدة معلوماته، كما تردّ على مجاملات جميع الزملاء الّذين يحاولون التودّد إليها بلهجتها الفراتيّة المحبّبة، لم تسمح لأيّ كائن بالاقتراب من حياتها الخاصّة، الّتي كانت بسيطة أكثر ممّا يظنّ جيرانها في البلدة الصغيرة، والمدرّسون، خاصّة العزّاب منهم. ببساطة هي فتاة من طبقة متوسّطة وعائلة متعلمة، محافظة بعض الشيء، رغم ملابسها الّتي تعبّر عن تحرّر وخصوصيّة لم يزعجا أحداً، حين تتجوّل في البلدة «س» الّتي كانت وقتها بلدة صغيرة لا يتجاوز عدد سكانها عشرة آلاف نسمة، تبدو بصفتها الأصليّة فلّاحة



قادمة من قرية بعيدة، أكثر منها رسّامة قادمة أو فنّانة تحارب التقاليد.

لم يجرؤ عبد اللطيف على مصارحتها بمشاعره وبرغبته في الزواج بها، أرّقته ليالي طويلة، شعر بنفسه لأوّل مرّة في حياته بأنّه غارق في المسافة الرماديّة الّتي لا يمكن وصفها، بين الحبّ والرغبة. هنا الكلّ ريفيّون لا امتياز لأحد في هذا، لكنّ لنيفين ميزة أخرى لا تقلّ سحراً عن باقي صفاتها، صوتها الجميل حين تغنّي أغاني عراقيّة قديمة، لطفها الزائد جعلها تبدو كورقة شجر في خريف عاصف.

مضت الشهور الثلاثة الأولى ثقيلة على عبد اللطيف، حاول التلميح لنيفين بإعجابه وخوفه في الوقت نفسه، لم يكن يصدّق في قرارة نفسه أنّ هذه الفتاة الّتي تدرّس ثلاثة أيّام في الأسبوع، وتقضي باقي وقتها في كلّية الفنون بريئة إلى الدرجة الّتي تبدو عليها، لكنّ ذلك لم يعد يهمّه، كان يعتقد أنّه يعجبها، لكنّه لم يتأكّد من أيّ شيء وبقي يعيش أرقه بصمت.

سافر عبد اللطيف إلى العنابيّة كعادته لقضاء أسبوعي العطلة الانتصافيّة بين أفراد عائلته، الّتي لم تعد تناقشه في رغبته في الابتعاد كلّ هذه المسافة عن العنابيّة. منذ سنوات اكتفت بالترحيب به دون التطرّق إلى أيّ سيرة تزعجه وتستفزّه، أغلقت سيرة أخته ليلى ولم تعد العائلة تذكرها نهائياً، حاول الجميع نسيانها، لكنّ سيرتها كانت أشدّ ألماً من أن تُنسى، الجميع تواطأ على محو التفاصيل باختلاق قصص وهميّة للتغطية على الحقيقة، معتمدين مبدأ أنّ الحكاية الّتي تريد محوها حرّفها واجعلها عدّة حكايات بنهايات وتفاصيل مختلفة، قالوا إنّ ليلى انتحرت لأنّها مصابة بجذام لا يمكن الشفاء منه، كما قالوا إنّها كانت قبيحة وتخفي عيباً خلقيّاً، وصورتها كفتاة جميلة كانت وهماً، دوماً في النهاية تنتصر السيرة الأشدّ بطشاً، لكنّ الحقيقة



لا تموت حتى لو بقي صوتها خافتاً إلى درجة لا أحد يستطيع سماعه، بقيت السيرة الأشدّ نصاعة: ليلى فتاة جميلة جداً، قويّة، ولم تقبل حياة ذليلة اختارها لها الآخرون، لذلك اختارت موتها بنفسها.

عاد عبد اللطيف من عطلته بيقين كامل، نيفين ليست امرأة عابرة في حياته، لم تفارقه ابتسامتها اللطيفة لحظة واحـدة، شعر بنفسه ذلك الرجل الّذي لم يلتقط باقة الورد الطافية على سطح النهر فقط، بل انزلق إلى أعماق النهر وغـرق، وحين قـرّر مصارحتها لدى وصوله إلى بلدته، فوجئ بصديقه الحميم نجيب العبد الله ونيفين قد تزوجا في العطلة الانتصافيّة.

دون مقدّمات سافر نجيب مع عائلته إلى قرية الموحسن، طلب يدها من أهلها، وتمّ كلّ شيء بدون أيّ مشاكل، تزوّج الاثنان، وانتقلت نيفين للعيش في منزل زوجها وسط بساتين أسرته الكبيرة، سار كلّ شيء على ما يُرام، ما عدا لحظات ألم عبد اللطيف الّتي بـدأت تتراكم بصمت مهلك. كانت نيفين الوحيدة الّتي التقطت إشارات ذلك الألم في مناسبات كثيرة، خاصّة في السهرة الكبيرة الّتي دعا فيها العروسان كلّ أصدقائهما للاحتفال بزواجهما، لم يستطع عبد اللطيف إخفاء رغبته فيها وندمه الشديد على تأخّره عن التقاط باقة الورد. تجاهلته أوّل الأمر، وبعد سنوات بحثت عنه لتستعذب عذاب رجل يحبّها بصمت.

كلّ شيء انتهى ببساطة، رغم فجيعتها في زواجها لم تعترف بارتكابها خطأً كبيراً ستندم عليه بصمت أيضاً، كانت تعرف أنّ عبد اللطيف ليس الرجل الّذي تاقت إليه، يعجبها لكن ليس إلى درجة الزواج والعيش معه، أشهر عديدة قضاها عبد اللطيف وحيداً يكابر على جرحه، يتحاشى لقاءها، يتهرّب من دعوات صديقه نجيب العبد الله الّذي لم يشعر يوماً بخطأ زواجه بالفتاة الّتي أحبّها صديقه بهدوء،



لم يعرف أنّه يعيش مع امرأة لديها فرط حساسيّة وأحلام غريبة، كان الأمر بالنسبة إليه حدثاً عاديّاً، أمّه أشارت إليها ففاتحها في موضوع الزواج ولم ترفض، كلّ شيء تمّ بسرعة وسارت الحياة هانئة وسهلة، الحياة الرتيبة بعد عدّة أشهر استطاعت فرض إيقاع النسيان على الجميع إلّا عبد اللطيف الّذي لم ينس، بقيت رائحتها البعيدة تثيره، ومشيتها تربكه، ونظراتها القويّة تكاد في لحظات تدمّره وتفضح ضعفه، نيفين نسيت الرسم، تحوّلت إلى أمّ ومدرّسة رسم عاديّة تملي واجب الحصّة بدون انفعال، وبعد سنوات قليلة أصبحت تشبه كلّ نساء البلدة «س»، نسيت صوتها الجميل والأغاني العراقيّة ولهجتها الفراتيّة العذبة الّتي لم تعد تتحدّث بها إلا نادراً.

لم يستطع بلبل تصديق حقيقة أبيه كرجل وحيد وعاشق صامت أيضاً، أخيراً فهم سرّ ولعه بالأغاني العراقيّة، كلّما تخلّت نيفين عن شيء من ماضيها التقطه عبد اللطيف، احتفظ به بدون إرادة منه، أعاد تلميعه وركنه في زاوية من زوايا حياته، احتفظ بالكثير من وسائل الإيضاح الّتي رسمتها نيفين، نفض الغبار عنها وأنقذها من التلف في مستودع المدرسة، لكنّه رغم كلّ شيء، بقي الرجل نفسه المشتكي من غياب زوجته، صاحب المزاج السيّئ الّذي لم يحتمله بلبل حين عاد للعيش في منزل العائلة بعد طلاقه من زوجته هيام.

كان من المفترض لتلك العودة إلى منزل العائلة أن تخفّف من ألم الأب الأرمل وألم الابن المنفصل عن زوجته، حتى لميا حين زارتهما لم تحتمل منظره المهمَل وهو يحتفل بالذكرى السنويّة الخامسة لرحيل زوجته، لم يستمع إلى اقتراحها باصطحابه إلى بلدتها في زيارة طويلة، تحتفي به كما يليق بصداقتهما، قالت إنّ زيارته الطويلة ستبهج زهير وابنها وابنتها، حاولت تذكيره بإمكانيّة إحياء مسكبة البقدونس من جديد، نظر إليها وابتسم ثمّ وافق على إعداد الغداء،



قال لها: حين يرحل الحبيب يأخذ معه مفاتيح السعادة، ويرميها في تلك الحفرة العميقة الّتي تُسمّى القبر، زوجته لم تترك له أيّ شيء يبهجه، أخذت معها كلّ شيء، النوم وأسرار الطعام ولحظات القهوة الصباحيّة ومشاوير المساء في البلدة. لم يقل أكثر لكنّها فعلاً أخذت كلّ شيء، هو الآن رجل مهجور ووحيد ينتظر الموت، لم يحدّثها عن كآبة أعماقه، لم يخبر أحداً بأنّه منذ تلك العطلة قبل أربعين عاماً لم يتذوّق طعم السعادة. لقد انتهى كلّ شيء بالنسبة إليه، ذكريات ما عاشه مع زوجته كانت استعارة ضروريّة أو وقتاً مستقطعاً للبقاء قرب حبيبته الّتي بقيت مندهشة من نظراته المختلسة في بعض الأوقات، والأكثر غرابة في سنواتها الأخيرة، كانت تخترقها تلك النظرات وتربكها، تطفو في أعماقها مشاعر عذبة لا تستطيع الإفصاح عنها.

الاستسلام للذكريات أفضل ما يقوم به أيّ كائن يريد الهرب من جروح هذه الذكريات، تكرارها يفقدها الألق والمهابة، وقتها يطفح الألم ويغور في أعماق الأرض، هذا ما فعله بلبل وهم يغادرون حاجز البلدة «ص». الصباح رائق، صمت غريب بعد ليلة قصف مجنونة، لكنّ الصمت لن يطول لقربهم من مناطق اشتباكات ساخنة ومتواصلة منذ أكثر من سنتين ونصف، قوّات المعارضة استولت على طرق رئيسيّة، أضعفت قوات النظام وهدّدت إمدادات النفط والقمح. استسلم بلبل واستعاد ليالي أبيه الأخيرة في منزله، كان متعباً، يكابر على الألم، كان يعرف أنّه يعيش أيّامه الأخيرة، شعور عارم برغبة الموت داهمه ولم يعد يتركه.

تحدّث الأب بصوت متهدّج عن الموت والحبّ، عن الثورة والشهداء، عن مستقبل عظيم ينتظر الأطفال الّذين وُلدوا في السنوات الأربع الماضية أو الّذين سيولدون، عادت إليه صورة زوجته لكنّه لم يتوقف طويلاً عندها، ترحّم عليها بجمل اعتياديّة كما يترحّم



الغرباء على ميت في جنازة عابرة، أسهب في إعادة تفاصيل علاقته مع حبيبته نيفين، فهم بلبل رغبته في رواية كلّ شيء مرّة أخرى، ليكشف عن وجه آخر مجهول لا يعرفه أحد، يريد ترك سيرته الأخرى بين يدي بلبل، لا وصيّته الأخيرة فقط. كان مبتهجاً لاقتراب موعد تمدّده في قبر أخته ليلى، لقد اشتاق إليها رغم كلّ شيء، أحب السيرة الّتي ينسجها عشاق قاوموا الموت بالحبّ في تلك الأرض القاسية، العشاق الفاشلون قبل تحوّلهم إلى ضفة الرجال والنساء المستسلمين كانوا يعتبرون ليلى قدّيسة، يضعون في الخفاء الورود على قبرها المهمل، يؤلفون لها الأغاني، ويصفون بافتتان جمالها الوحشي.

يتذكّر بلبل، أبوه لم يعد يذكر أمّه، رغم أنّه منذ سنوات، بعد موتها، واظب على زيارة قبرها في الأعياد، كفعل اعتيادي يقوم به كلّ الناس في صباح الأعياد، السنوات الأربعون الّتي عاشاها تكفي، نيفين عوّضته كلّ الخسارات، أعادت إحياء روحه وجسده مرّة أخرى. الموتى حين يُدفنون قرب أحبّتهم يرتاحون أكثر، ولديهم إشارات سرّية لا يفهمها الأحياء. لولا أخته ليلى ورغبة نيفين في أن يموت بعيداً عنها لما طلب دفنه في العنابيّة، لم تسمح له نيفين بأن يُدفن في المقبرة نفسها، سيكون غريباً بين قبر ابنها وزوجها نجيب العبد الله صديقه القديم، مرّات عديدة طلب منها التفكير والسماح له بالبقاء قربها، كان يريد الموت بين ذراعيها، لكنّها لم تناقش الأمر طويلاً، لم تعد لديها أيّ رغبة في البقاء وحيدة، لن تكون حارسة قبور.

شعرت نيفين في الآونة الأخيرة بأنّها لن تموت قريباً، فائض العمر أربكها، لا شيء يرضيها سوى عودتها إلى أرض طفولتها، على طريق الحقول الطويل أرادت رمي كلّ ما يعوق طيرانها بحرّية. كانت تفكّر، هناك ستعود لتغنّي بصوت حزين أغاني فراتيّة تليق بابنيها الشهيدين، ستتخفّف من أثقالها وترمي الزوائد من حياتها، الرجال



فائض يجب رميه، جرّبت مرّة ثانية العيش مع عبد اللطيف، لم يستطع تغيير وجهة نظرها، أتعس المخلوقات هم المعبودون، كانت تريد الصفة الّتي تحبّها، عاشقة تعبد من تعشق لا معشوقة يعبدها من يعشقها، اكتشفت سرّ تعاستها الدائمة، لم تكن عاشقة في يوم من الأيّام.

كان عبد اللطيف يعيد وصيّته على مسامع بلبل طوال أيّامه الأخيرة الّتي قضاها الاثنان معاً. بلبل وحده يعرف سرّ أبيه، تخيّل وجه حسين ووقع الصدمة، حين سيكتشف أنّ له شريكة في البيت، الإرث الوحيد الباقي. ذات صباح استيقظ عبد اللطيف مبكراً، وكانت عيناه أكثر لمعاناً ووجهه أكثر إشراقاً، تحدّث الليلة الماضية مع نيفين، اتّصلت به من خطّ فضائي يخصّ قائد كتيبة يعرفه جيّداً، التمعت عيناه حين رأى إشارة الاتّصال الغريب، أغلق باب الغرفة وراءه، وخرج بعد دقائق قليلة مبتهجاً، استغرب بلبل خجله، قال إنّه سينام باكراً، وعاد إلى غرفة نومه. في الصباح كان يشرب قهوته في المطبخ وفنجان بلبل مغطّى ينتظره، فاجأه حين قال إنّه إذا عاش أكثر فلن يكون إلّا حارس مقبرة الشهداء الّتي هندسها بنفسه، يعتني بنباتاتها وورودها وأشجارها، يسمع ضحكات الشهداء الصاخبة كلّ ليلة، يحدّثهم عن دمهم الّذي لم يذهب هدراً، يخبرهم عن رحيل الطاغية وعن الأطفال الذاهبين إلى مدارسهم مرتدين ثياباً نظيفة، رؤوسهم مرفوعة وعيونهم مليئة ثقة بالمستقبل. كان يتحدّث عن الشهداء والثورة، يثق بالنصر ولا يريد سماع أيّ انتقاد، حين يبدي بلبل رأيه قائلاً إنّ الثورة انتهت وتحوّلت إلى حرب أهليّة، وجيش النظام الأقوى سينتصر في نهاية المطاف، يكتفي الأب بهزّ رأسه ويدخّن بنهم دون تعليق، متجاهلاً حديثه. انزعج بلبل من تجاهل رأيه، أراد القول له إنّ المجتمع الدولي وروسيا وأميركا والعرب موافقون على بقاء النظام



والقضاء على هذه الثورة الّتي وُلدت يتيمة، شعر الأب بأنّ أيّ حديث سيفسد أحلامه، لا يريد القسوة على ابنه، لكنّه نبّهه إلى أنّه هنا كي يتحدّث وبلبل ليستمع فقط، أيّام قليلة وسيمضي بعيداً، يستطيع بلبل بعدها العودة إلى تخاذله ورأيه، والاستمرار بالعيش في حيّ يناصر النظام، كما يستطيع الرقص على أنغام الأغاني الطائفيّة الّتي تبثّها ميكروفونات قويّة مثبّتة فوق منزل يجتمع فيه عناصر حزب الله الّذين لم يعودوا يخفون وجودهم، مع عناصر الدفاع الوطني، الميليشيات الّتي سلّحها النظام ونظمها من متطوّعين عراقيّين شيعة وسوريّين مناصرين له. أغلب عناصر هذه الميليشيات عاطلون من العمل أو أصحاب سوابق، تُرك لهم العنان لإهانة واعتقال وقتل أيّ شخص، يثيرون الرعب حتى في نفوس المؤيّدين وأنصار النظام.

حين يمرّ بلبل قربهم يرمي السلام، يحاول الابتسام ولا يتوانى عن الدعاء لهم، بينما أبوه حين مرّ قربهم مرّة بصق على الأرض في تحدٍّ واضح، قال لبلبل: هؤلاء الخونة والمحتلّون يجب أن يموتوا جميعاً. يومها، حاول بلبل الإسراع في مشيته، رجا أباه بكلّ جدّية الكفّ عن حركاته الصبيانيّة، قتل أيّ أحد لا يكلّفهم شيئاً، روى له أكثر من عشر قصص عمّا يفعلونه بالناس، خاصّة العائلات المتعاطفة مع الثورة، أحرقوا منزل عائلة حين اكتشفوا اعتقال ابنهم على حاجز، وهو يهرّب أدوية لأحياء حمص المحاصرة. اختطفوا فتاة من الحيّ المجاور، ماتت بعد اغتصابها لمدّة أربعة أيّام متواصلة، وأجبروا أهلها على الإقرار رسميّاً بأنّها ماتت في حادث سير مقابل تسليم جثّتها، جميع سكّان الحيّ صمتوا، وفي أعماق الكثيرين موافقة حقيقيّة على ما حدث. لم يتعاطف أحد مع عائلة الفتاة الّتي رُميت في صالون عائلتها، وآثار الاغتصاب واضحة على جسدها. لم تحتمل تلك العائلة البقاء في الحيّ، هاجرت إلى الأرجنتين ملتحقة بأقرباء بعيدين للأب



الّذي رفض ترك البلاد قبل الانتقام من قتلة ابنته الّذين يعرفهم بالاسم. عاد إلى قريته القريبة من حمص، واعتكف هناك منتظراً اللحظة الّتي ستسمح له بإشهار بندقيّته في وجه القتلة الّذين علّق قائمة بأسمائهم في صدر منزله.

حاول بلبل الهرب من سماع تفاصيل أشياء كثيرة حدثت، كان يخاف لكنّه في الآونة الأخيرة ازداد خوفاً، اعتقد أنّ هدم جدار الخوف يشبه قلع ضرس عفن ورميه من النافذة، لم يستطع فعل ذلك، العيش في تلك الحارة وبين هؤلاء الموظفين جعله يدفع أثمان حياته مرّتين، يشعر بوحدة عميقة، وفي الوقت نفسه لا يريد الانتماء إلى أيّ مجموعة، ليس حيادياً، في أعماقه يتخيّل الكثير من الأشياء الّتي تمنحه الرضى، لا يستطيع منع نفسه من الابتهاج في أعماقه حين يرى مواكب قتلى النظام تعبر الشارع العريض في طريقها إلى مقابرهم، لا يستطيع النظر في عيونهم في الصور المعلّقة على الجدران والّتي تنعاهم كشهداء. يهرب من صورهم، وخوفه يمنعه حتّى من المشاركة في الهمسات السرّية بأصوات خفيضة، يتبادلها زملاؤه الموظفون الشامتون بزملائهم أنصار النظام، الّذين بدأوا يشعرون بالخوف أيضاً. تحوّل الخوف إلى الضفّة الأخرى، لم يعد أحد يصدّق النظام، الورطة أكبر من احتمالها، تبادل الجميع الخوف بشكل واضح، من كان واثقاً بالنصر قبل سنة بدأ يشعر بالإعياء، يفكّر في حياته المهدّدة ولا أحد يستطيع حمايته، لكنّ بلبل بقي يراقب ذاته ما دام غير قادر على مراقبة الآخرين، ليكتشف أنّه أكثر خنوعاً من الجميع.

في الأشهر الأخيرة من سنة 2013 بدأت المدينة تشعر بوطأة ثقيلة لا أحد يستطيع تفسيرها، في لحظات صفاء ذهني يقول بلبل لنفسه إنّها وطأة فكرة الانتقام، ونموّها في الضفة الأخرى بشكل رهيب، لم يعد لدى الآخرين سوى رغبة الانتقام. يفكّر ساخراً في



هذه الفكرة الرهيبة، سيستيقظ ذات يوم ويرى حارته فارغة، لقد هرب الجميع خوفاً من الانتقام، هرب المختار الّذي لم يدّخر جهداً في مراقبة كلّ سكّان الحارة، كتب التقارير في جميع المشبوهين بمن فيهم أقرباؤه، وأولئك الشباب الّذين لم يكتفوا بتأييد النظام، بل حملوا السلاح وأهانوا أصدقاء طفولتهم، وحوّلوا حياة الجميع إلى جحيم، كانت تكفي الشبهات لترى الجثث مسحولة في الشوارع، أو الاختفاء دون عودة.

لم يغرق بلبل في الأسئلة خوفاً من انجدال ذلك الحبل العاطفي العميق، وتحوّله إلى شخص منتقم أيضاً. سيجد وسيلة للخلاص من خوفه، لكن من الصعب التخلّص من فكرة الانتقام، فكرة موت عدوّك لا تكفي لإطفاء نار الانتقام داخلك، بل يجب أن تكون قاتله لشفاء غليلك، شيء مخيف... لم يعد ذلك الحبل العاطفي الّذي ينمو في القلوب خُفيةً، بل أصبحت تراه على الوجوه الصامتة الّتي لا تعبّر سوى عن حنق عميق.

ندم الأب لتركه أرض الشهداء كما كان يسمّي بلدته بفخر. في تلك الليلة حاول الصمت، لكنّه خاف أن يموت وتكون تلك آخر كلمات سمعها من ابنه المتخاذل، نهض إلى المطبخ وبدا بتقشير حبّات بطاطا، رغم الإنهاك الكبير البادي على وجهه كان مصمّماً على طبخ مفركة بطاطا كما كانت تطبخها نيفين، تسعده العودة إلى سيرتها، رغم الألم الّذي سبّبته هذه السيرة لبلبل بعد معرفته أنّها زوجة أبيه الثانية وحبيبته، وليست زوجة صديقه القديم الّتي كان يناديها بالخالة نيفين. في ما بعد، فكّر بسخافة التفكير بالثأر لأمّه، حلم بأنّه سيفعل الشيء ذاته مع لميا إذا مات زهير، سيذهب هذه المرّة ويركع تحت قدميها متوسّلاً السماح له بالبقاء إلى جانبها، كان يفكّر، الحبّ هو أن تقضي شيخوخة سعيدة مع حبيبتك، كأنّ



السنوات ما قبل الشيخوخة لا قيمة لها، يجب مرورها ليصل العاشق إلى تلك اللحظة الّتي يتوقّف فيها عذابه، يبدأ حياة جديدة ويعيد ترتيب أحلام يقظته الّتي استعادها مئات المرّات في سريره الدافئ، سعداء من يقضون شيخوختهم مع عشّاقهم. الشيخوخة استعادة مقصودة للطفولة، وما بين الطفولة والشيخوخة مجرّد سنوات لهو يجب إضاعتها عمداً للوصول إلى المعنى الحقيقي للزمن. هذا ما فعله الأب حين التقى من جديد مع نيفين، لم يمهلها الكثير من الوقت للتفكير، ولم تفاجأ سوى بحماقته، كانت تظنّ أنّ ما بينهما مات، أو أصبح بالياً إلى درجة لم يعد يعني أحداً، كلمات غير مباشرة قليلة لا تعني في أيّ حال إعلان حبّ، كما نظرات خجولة بين الفينة والأخرى لا تعني التعبير عن رغبة.

فوجئت بوصفه لأوّل دخول لها إلى المدرسة، وصف لون جوربها، وشكل كندرتها، قميصها الأبيض وتنّورتها السوداء، أسهب في وصف رائحتها، شكل رقبتها وضحكتها ولمعة عينيها، لم يترك تفصيلاً إلّا أعاده مرّة أخرى لكن هذه المرّة بصوت عالٍ، ارتبكت نيفين الّتي لم تخفِ حنينها إلى تلك الأيّام، حين كانت «س» بلدة صغيرة، يقطعها شارع مستقيم، تحيط بها حقول الزيتون والخوخ والمشمش وعرائش العنب، بيوتها كبيرة ورحبة وأبوابها دوماً مفتوحة، الغرباء فيها يُعدّون على أصابع اليد الواحدة، قرية كبيرة كانت، لا تبعد عن دمشق سوى كيلومترات قليلة لكنّ الطريق بينهما عبارة عن بساتين لم يبق منها سوى القليل الآن.

أعجبها أن يأتي أحد في هذا الوقت، ويحدّثها عن أشياء تداعت. في الحقيقة، هي أشياء لم تكن أصلاً موجودة بالنسبة إليها، لكنّها أعادت تركيبها في ذاكرتها كحقيقة غير قابلة للجدل، كانت لديها حياتها الأخرى الّتي لا يعرفها أحد من أبناء البلدة أو زملائها،



لكنّها في النهاية أشياء لا تكفي لحياة عاطفيّة مزدحمة تُشعِر أيّ امرأة بالامتلاء. كانت قصّة حبّ وحيدة فاشلة، تشبه قصص المراهقات الأولى في بساطتها، أحبّت الشاب الّذي تحبّه كلّ بنات الصفّ في السنة الجامعيّة الأولى، كانت أولى المنسحبات، لم تستطع احتمال التجاهل المطلق، كان الانسحاب يليق بشخصيّتها المحافظة، عدم ثقتها بنفسها كفتاة خائفة من أهواء المدينة الكبيرة، وما احتفظت به كسرّ خطير عن مغامرة جنسيّة فاشلة لمرّة واحدة لم تتكرّر، تحفّظها لم يعجب زملاءها في كلّية الفنون الجميلة، حيث الفوضى والحماقة جزء من المكان وحياة الطلاب.

فكّرت في تلك الليلة الطويلة الّتي اجتمعت فيها مع عبد اللطيف، تقاسمت معه العناية بشابّ أصيب برصاصة قنّاص مزقت عظام كتفه، كانت أموره جيّدة ولا تستدعي القلق، المعارك متوقّفة لعدّة أيّام، لكنّ وقت الهدنة لن يطول، الجميع يرى حشود قوّات النظام على مدخل البلدة، دبّابات وبطاريّات مدفعيّة تتمركز، حواجز رمليّة وقنّاصون ينتشرون على أبنية عالية تشرف من بعيد على البلدة. تلك الليلة كان كلّ شيء هادئاً، والقمر في اكتمال كامل، لقد عمل عبد اللطيف لأيّام طويلة، أعاد ترتيب كلّ شيء في المشفى الميداني، سجّل قوائم بالأدوية الموجودة في المخزن، وأسماء المرضى الّذين خرجوا معافَين، بالإضافة إلى قائمة بالشهداء الّذين نظّم عمليّة دفنهم بإتقان، في قبور تحمل أرقاماً. بعد تنظيمه مقبرة الشهداء الجديدة، لم ينسَ الورود الّتي كانت السرّ الّذي جعل نيفين تفكّر بأنّ هذا الرجل قد تغيّر كثيراً، عكس أبناء جيله، بدا أكثر شباباً وقوّة. لم يعد يرهبه شيء، يندفع مع الشباب وسط المعركة ويسحب الجرحى غير آبه بالموت، طاقة غريبة نبعت في أعماقه، أيّاماً طويلة



يكتفي بالنوم ساعات قليلة، ولا ينسى أيّ تفصيل يحتاج إليه المشفى الميداني أو المقبرة.

تلك الليلة كان عبد اللطيف قريباً جداً من نيفين، شعرت بأنفاسه المضطربة كمراهق، لم يمهلها طويلاً حتى مدّ يده إلى أصابعها، وضغط على كفّها بقوّة أربكتها. ظنّت الأمر مجرّد تعبير عن التضامن المطلوب في مثل هذه اللحظات، لكنّها شعرت بإحساس غير بريء ينسرب إلى دمها، لن يجد فرصة أفضل من هذه اللحظات، ليخبرها بما اعتبر أنّ عليه البوح به عن ظلمات نفسه العاشقة. تحدّث لأكثر من ساعة، نيفين استمعت دون تعليق، لم يمهلها الردّ أو يترك لها أيّ مجال لتبادله الحديث، أو تصحيح وقائع رواها بثقة، نهض وتركها وحيدة. غادر المشفى إلى ما بقي من منزله، غرفة النوم الوحيدة وبقايا مطبخ تهدّم حائطه الشمالي المفتوح على الحديقة. اعتاد العيش مع البقايا ورفض هجر المنزل، قال لأصدقائه الّذين طلبوا منه الانتقال إلى منزل أكثر أماناً، يحتوي على قبو قد يحميه من قصف الطيران، إنّ ما بقي يكفيه، لن يغادر سريره كي لا يشعر بأنّه رجل غريب. دوماً الغربة تبدأ من مغادرة السرير، وتلك الأشياء الصغيرة الّتي تستعملها يومياً، تصبح جزءاً منك، مغادرتها شيء صعب للغاية وينذر بالشؤم دوماً.

لم يكن الرجل الوحيد الّذي رفض مغادرة بقايا منزله، تصميمه على البقاء بدا غير مفهوم، فسّره من بقي من أصدقائه ومعارفه بعدم قدرته على هجر ذكريات زوجته، لكنّ الحقيقة أنّ عبد اللطيف لم يرغب في هجر مكان أحلام يقظته الّتي بقيت نيفين لسنوات طويلة موضوعها الأثير. تلك الليلة نام بعمق افتقده منذ سنوات طويلة، نيفين بقيت جالسة وحيدة على كرسيّها في حديقة المشفى الميداني، غير قادرة على الحركة، تفكّر في ما قاله عبد اللطيف،



تحاول استعادة تفاصيل قالها عن مشاعره، وتعبيراته المختلفة، لم تتذكّر شيئاً البتّة، لكن في أعماقها أعجبتها إعادة ترتيب حياتها من جديد، يسعدها اكتشاف رجال أحبّوها ولم يصرّحوا بذلك، كانت تكره صورة الفتاة الريفيّة الخائفة من المدينة والّتي لم ترفض أوّل عرض للزواج برجل حسبته مناسباً، لم تستطع الانسحاب من الورطة الّتي غرقت فيها، لم يمنحها نجيب العبد الله السبب المنطقي للانسحاب من حماقتها بالموافقة على الارتباط برجل لا تحبّه، لم تنتبه إلى حياتها الّتي مضت بقربها ومسرعة أيضاً، كانت حياتها الّتي تمضي على صفحة النهر لا باقة الورود الّتي لم تنتبه إليها إلّا متأخّرة، لم يعد ذلك الفعل يعني أيّ شيء. حين تمضي الحياة لا تفيد الذكريات سوى في نبش المزيد من الألم.

لم يحاصرها عبد اللطيف، ولم يمهلها لتنسى أيضاً. كان موجوداً دائماً قريباً منها، كفراشة تحوم حولها، لقد اختار الاحتراق وكره الحياة البطيئة، هذا ما فكّر فيه وهو يرى نظراتها المسروقة إليه تتغيّر كلّ يوم، يشعر عبد اللطيف بأنّه محاط بجدار زمني يحميه من الإحباط والحياة البطيئة. كان واثقاً، لن تتركه يغرق في دوّامتها مرّة أخرى، لا يعرف من أين أتته الجرأة لارتكاب حماقات كثيرة في سنة الثورة الأولى، فعل أشياء كثيرة كان يخشاها، فتح باب الخزانة وهبّت في وجهه رائحة الثياب العفنة. لم يفتح هذه الخزانة في حياته، هي المرّة الأولى الّتي يرفض فيها النظر إلى ما في داخلها، طلب من فتاة تهتمّ بشؤون التبرّعات العينيّة حمل كلّ شيء، أفرغ الخزانة من ثياب زوجته أخيراً، غيّر رأيه في ما بعد، وطلب من مجموعة شباب حمل الخزانة بأكملها والتصرّف بها، بضعة مسامير في الحائط تكفي لتعليق ملابسه القليلة، يجب التخلي عن رائحة من تريد طردهم من ذاكرتك.



يقول لنفسه: وإلامَ يحتاج الشهداء؟ لا شيء، يجيب بنفسه، ويكمل: حتى لو كانوا أحياءً، لا شيء. كانت تعجبه فكرة التخلّي والزهد في أيّامه تلك، كما تعجبه صورته كشهيد حيّ يبحث عن الموت في كلّ لحظة، حقاً تحطّم جدار الخوف، عادت صورته الّتي يحبّها كرجل شجاع لا يخشى أقسى ما يخشاه البشر، الموت. احتفظ في جيبه بزجاجة سمّ قاتل، صغيرة لكنّها تكفي لموت سريع، كان يخطّط لابتلاعها في حال اعتقاله، لن يسمح لجلّاده بالاستمتاع بتعذيبه، كان يفكّر بأولئك الشجعان الّذين قرأ عنهم في تاريخ الثورات والّذين صعدوا منصّة المشنقة بخطوات ثابتة، بصقوا على قاتلهم ومضوا إلى الموت بكلّ ثبات.

فكّرت نيفين طويلاً في ما بقي لها، لا شيء إلّا القبور، عادت مرّة أخرى امرأة غريبة تحنّ إلى منزل طفولتها البعيد، أصدقاء ابنيها ورفاقهما حاولوا بشتّى الوسائل التخفيف من وحدتها، لكنّ استمرار الحياة هو المشكلة الكبرى. أصلاً لم يبق أحد، البلدة في الليل خاوية تماماً، بضعة آلاف من البشر علقوا هنا، لم يستطيعوا المغادرة بعد إطباق الحصار، بيوت قليلة لم تُدمَّر، أصبحت البلدة مكاناً مشاعاً للجميع، ما بقي منها قليل إلى درجة أنّه لا يكفي للبقاء عدّة أسابيع، نفدت المؤن، والحيوانات نفقت، خطوط الماء والكهرباء دُمّرت تدميراً كاملاً، فكّر الجميع بطرق أخرى للعيش، يجب دوماً التفكير بالمحافظة على الحياة، يجب حفر الآبار القديمة، استعادة طرق تخزين البقوليّات الّتي تنمو على أطراف البساتين القريبة، الوصول إلى الحقول المنتجة البعيدة أصبح مستحيلاً، جنود النظام أغلقوا كلّ المداخل والمخارج، استطاعوا بعد أربع حملات عسكريّة كبيرة احتلال المراصد ونشر مجموعات كبيرة من القنّاصة الّذين يراقبون كلّ المداخل الممكنة وغير الممكنة المؤدّية إلى تلك الحقول.


مكتبة الفكر الجديد

رغب الجميع في تحطيم المرايا، لا يمكن لأيّ شخص النظر في وجه شخص آخر دون شعوره بالأسى. الجوع الّذي سمعوا عنه في الحكايات اختبروه جيّداً، اختبروا الأنانيّة وحبّ البقاء، تنازع البشر بشراسة على القليل من الأعشاب والفطور البرّية. تغيّر كلّ شيء في البلدة الصغيرة، ما كان ممكناً قبل شهور قليلة أصبح مستحيلاً. يسير عبد اللطيف في الشوارع الفارغة، وسط البيوت المهدّمة، يبحث عن بقايا طعام منسيّ، حفنات قليلة من البرغل أو الأرزّ، القليل من زيت الزيتون أو الذرة، بقايا عدس مجروش، دوماً لا يجد شيئاً، لقد سبقه آخرون إلى المكان. يقضي ساعات طويلة في البحث بين الأنقاض، يمضي في البراري القريبة، باحثاً عن أيّ شيء يمكن أكله، أرنب، كلب، قطّة، كلّ شيء أصبح مباحاً، ذبحوا الكلاب واخترعوا وصفات لطبخها، طاردوا القطط في كلّ ركن، كثيرون ماتوا جوعاً. لا يريد العودة خالي الوفاض، حبيبته الّتي تنتظره تذوي كلّ يوم، المشاعر الّتي استيقظت متأخّرة ساعدتهما في العودة مرّة أخرى إلى البحث عن براءتهما، يعرفان مواعيد القمر وينتظرانه.

لم تهمله طويلاً، قالت له إنّها لا ترغب في قضاء بقيّة عمرها وحيدة، عبد اللطيف التقط رسالتها الواضحة في ذلك اليوم من شتاء 2013، قبل أعياد الميلاد بأسبوعين، ذهب إلى الكنيسة الّتي تهدّم جزؤها الأكبر في قصف الطيران الأخير. كان الأب وليم آخر المسيحيّين الخارجين قبل إطباق الحصار كاملاً على البلدة، أوصاه بالعناية بما بقي منها، طمأنه أنّ المطرانيّة نقلت كلّ المخطوطات والأيقونات إلى مكان مجهول في لبنان، فهم عبد اللطيف الرسالة، يجب أن يعتني بالروح الّتي تطوف في المكان. كان يذهب كلّ فترة ويجول بين الخرائب، بقي من الكنيسة جزء صغير من القاعة الكبيرة، في وسطها باب يودي إلى غرفة صغيرة، تضمّ بضعة أثواب كهنوتيّة



وزجاجات زيت صغيرة، استغرب عبد اللطيف عدم المساس بها، فالنهب لم يوفّر شيئاً، حتى الجرس الضخم الّذي كانت تفاخر به كنيسة البلدة، بل كلّ كنائس المنطقة؛ كان حدادٌ سوريّ قد صنعه خصّيصاً لكنيسة إنطاكية، وبعد إنهاء صناعته أعجبه كثيراً، فأخفاه عن العيون، ولم يرغب في أن يُعلّق في كنيسة بعيدة، وبعد سنوات أهداه لكنيسة بلدة «س» حيث يستطيع الاستمتاع بصوته حين يُقرع أيّام الأحد.

دخل عبد اللطيف إلى الغرفة، قضى وقتاً طويلاً في قراءة كتاب صفحاته ممزّقة، لكن ما زالت هناك إمكانيّة لترتيبه من جديد. حين خرج مساءً، كانت نيفين جالسة على حجر كبير تنتظره، فوجئ بحضورها إلى هذا المكان في مثل هذا الوقت. جلس قربها ولم تمهله كثيراً كي تخبره مرّة أخرى بأنّها لا تريد قضاء بقيّة عمرها وحيدة، صمت الاثنان ولم يتحرّكا من مكانهما، التقط عبد اللطيف يدها وقبّلها بخشوع، تحسّس ذراعها، ثمّ غرقا في قبلة طويلة استمرّت لدقائق، اعتبرها عبد اللطيف القبلة الوحيدة في حياته، لم يكن يبالغ في إحساسه، كلّ شيء جرى بهدوء، نهضا وذهبا إلى منزل صديقهما الشيخ عبد الستار وطلبا منه تزويجهما، طلبت من بقي من أصدقاء ابنيها بالاسم، وأحضرتهم في الليل ليشهدوا على عقدهما.

كانت الليلة هادئة، ولا حاجة لمرابطة كلّ المقاتلين على الجبهات، لم يكن الموضوع غريباً أو مستهجناً كما توقّعت نيفين، بل مناسبة للمرح، أطلق المقاتلون الرصاص في الهواء احتفالاً بالعروسين، لا أحد يرفض طلباً للأستاذ عبد اللطيف الّذي قرّر عدم ترك البلدة، قاسمهم الجوع والعطش والبرد واعتنى بقبور الشهداء. شعر بانتماء قويّ إلى كلّ شيء من جديد، تولّدت لديه مشاعر مختلفة طردت صورة الرجل المتقاعد الّذي يقضي وقته في انتظار الموت، عاودته



الأفكار القويّة حول الثورات والحياة الكريمة، في أعماقه شعر بأنّه محظوظ، سيشهد نهاية نظام لم يقدّم له سوى الذلّ طوال خمسين سنة، رفاق حزبه خانوا المبادئ واستأثروا بكلّ الامتيازات، وسجنوا رفاقهم سنوات طويلة، ولم يتوانوا عن بيع قضيّتهم من أجل البقاء في الحكم.

استقرّت حياته بعد الحصار، لم يعد لديه شيء يفعله سوى البقاء ساعات طويلة، يزرع الورود فوق قبور الشهداء وفي ممرّات المقبرة الّتي لم يتوقع أن تكبر إلى هذه الدرجة. نظّم كلّ شيء فيها، رقّم القبور، ودوّن في سجلّ كبير كلّ التفاصيل، أسماء الشهداء، تاريخ الشهادة، وآخر كلمات قالها الشهيد، عائلته وسجلّه المدني، وصف للشهيد، طوله ولون عينيه وبشرته وعلاماته المميّزة. كان يفكّر بأنّه لن يبقى أحد هنا، لكن سيأتي يوم يعود فيه الجميع إلى هذا المكان، يجب أن يعرفوا أين دُفن أحبّتهم. لا يعرف لمَ يريد الناس معرفة أين دُفن أحبّتهم، لكنّه اعتبر ترتيب المقبرة مهمّة مقدّسة، الأحياء يعتنون بأنفسهم جيداً. رغم الجوع كان الجميع ما زالوا يحتفظون بالأمل، يتحدّثون عن الأيّام المقبلة، يدركون أنّ اليأس يعني الغرق في الهاوية، كانوا يؤمنون في أعماقهم بهذا الأمل الّذي لا يملكون سواه، كلّ معركة يكبّدون فيها النظام بجبروته خسائر لا يمكن تخيّلها، غير مسموح لهم بالتراجع، لقد أحرقوا كلّ مراكبهم.

استغربت نيفين قدرتها على فعل كلّ هذه الأشياء، انتابتها طاقة كبيرة للحديث عن حياتها السابقة، وكان عبد اللطيف يستمع إليها برقّة، يشعل لها الشموع كلّ ليلة، يعيدان ترتيب المكان من جديد، يتنقّلان بخفّة بين الخرائب، يتبادلان قبلات طويلة في المنازل المهجورة، المهدّمة. يحتميان تحت سقف من مطر غزير، يحتضنان بعضهما كأنّهما سيفترقان بعد لحظات قليلة، لم يكن لديهما وقت



للبحث في التسميات رغم أنّهما معجبان بالكلمات الكبيرة. عاشا كلّ التفاصيل الصغيرة الّتي افتقداها في حياتهما، يجوعان معاً ومع الجموع، يغليان الأعشاب ويخترعان شوربات من بصل النرجس ومن الأعشاب غير السامّة، يحافظان على الملح بحرص شديد، يخبزان ممّا توافر من عدس وحمّص وفول، أو أيّ حبوب أخرى إن تعذّر وجود الطحين المفقود غالباً. الطرق الّتي تصل البلدة مع البلدة القريبة غير المحاصرة بقيت سرّية، قليلة وضيّقة، لا تستطيع إدخال سوى كمّيات قليلة من الأدوية والطحين. لم يعجبهما احتكار المقاتلين أغلب الموادّ المهرّبة، لكنّهما لا يمتلكان وقتاً كافياً للعتاب أو القتال من أجل حفنة طحين. عملا بهمّة كبيرة، زرعا حديقة منزل عبد اللطيف خضروات يمكن تجفيفها، كالفاصولياء والباذنجان والبندورة، والقليل من القمح، في الحصار لا تملك ترف الاختيار.

بقيت نيفين تفكّر في خوفها من فائض الحياة وحيدة، عبد اللطيف لم يمهلها ويترك لها أيّ مجال للحديث عن حياتها الماضية، لقد تحدّثا عن الماضي بما يكفي لنسيانه، يشغلها دوماً بمشاريع يوميّة، وهي وافقته وانخرطت بقوّة في حياتهما الجديدة، شاركته صنع مصيدة للفراشات والركض كطفلة صغيرة وراءها، غير مكترثة بقذائف وصواريخ لا تتوقف عن الانفجار قربها. اقتنعت بأنّ أفضل الوسائل لهزم الحرب هي التوقّف عن الحديث عنها، لم تعد تخاف أيّ شيء منذ زمن بعيد، كانت أكثر حماقة من عبد اللطيف الّذي يندفع إلى الخطوط الأماميّة حاملاً حقيبة الإسعاف، وهي تسير بهدوء في الشوارع الفارغة، ترى القذائف تنهمر على البلدة، لا تفكّر سوى بأنّها لن تقتل سوى الخوف، لم يعد هناك أحد تستطيع القذائف تدميره، لقد قتلت بما فيه الكفاية، دمّرت بيوتاً مدمّرة، المقاتلون يستطيعون حماية أنفسهم جيّداً، حفروا خنادق طويلة، أقاموا تحصينات سرّية،



يتحكّمون بكلّ شيء على الجبهات، في النهاية هي معركة ولن تنتهي بسهولة أو في وقت قريب. الحرب الطويلة تحمل رياحها معها، تهبّ على الجميع، لا تترك شيئاً على حاله، تغيّر النفوس والأفكار والأحلام، تمتحن قدرة الكائن على الاحتمال.

لم يكن قرار نيفين أنّها لن تعيش ما بقي من حياتها وحيدة عبثاً، كانت تشعر بأنّها ستموت أيضاً لكن ليس في السنوات القليلة المقبلة. تحتاج إلى تمارين طويلة لتقطف ثمار الوحدة، الّتي تبدأ بضيق في التنفس، وتنتهي بشعور رائع بأن لا شيء ينتظر، تستيقظ صباحاً ككائن وحيد لا يشغله ما يشغل باقي الكائنات. نيفين لم تعد تحلم أن تصبح جدّة، لقد انتهى هذا الحلم، هي الآن معلّقة في الفضاء، لن تعيد ما تفكّك من علاقتها مع أهل زوجها، يكفيها ما عاشته من أوقات صعبة في معركة عبثيّة لتأكيد النفوذ، قضت سنواتها الطويلة في معارك مجّانيّة تشعر بسخافتها الآن، كلّ ما بنته تهدّم، العائلة والمنزل... لم يبق لها سوى انتظار الموت، والموت يبدو بعيداً. لم يعد يعنيها انتصار الثورة إلّا لترى قتلة ابنها يُسحلون في الشوارع، استبدّ بها شعور الانتقام أيضاً، لن يعوّض خسارتها أيّ شيء، بعد فقد التعاطف يصبح الكائن جثّة مرميّة في الطرقات ويجب دفنها، هي كانت تعرف أنّها تلك الجثّة الّتي يجب دفنها، لكن يجب أن تموت أولاً، وموتها هو العمل الأكثر مشقّة بالنسبة لها.

بعد مرور سنة على زواجها بعبد اللطيف تغيّر إحساسها، لم تعد تشعر باقتراب موتها، لم تعد ترغب بالبقاء في هذا المكان، لكنّها لا تستطيع الابتعاد عن قبر ابنها. العيش قرب الأموات لا يعجبها لكنّها كلّما فكّرت بالمغادرة، شعرت بشلل وخدر في ساقيها، أحياناً تشعر بحنين كبير للنميمة، والمشادّات العابرة مع أخوات زوجها السابق اللواتي حاولن التدخّل في كلّ تفاصيل حياتها، لقد مضى كلّ شيء،



كنّ طوال الوقت نسوة متكبّرات مقتنعات بوهم الانتماء إلى عائلة قويّة وميسورة، لكنهنّ الآن نازحات في مخيّمات اللاجئين ينتظرن العطف، لقد فقدن كلّ شيء أيضاً، منازلهنّ وأولادهنّ ورغد عيشهنّ.

كان بلبل يفكّر وهو يستمع إلى أبيه، يظنّه يؤلّف حكاية غير حقيقيّة عن علاقته بنيفين ومدينته وثورته، لا يمكن لرجل مثله في السبعين من عمره ولامرأة تجاوزت الستين وأمّ لشهيدين الركض في الحقول وراء الفراشات، وكتابة رسائل حبّ يتبادلانها كما لو كانا مسافرين، كما لا يمكنهما الجلوس تحت القذائف، والتحدّث عن القمر ساعات طويلة. لا يمكن تكذيب الأب. في تلك اللحظات كان عبد اللطيف يريد القول لبلبل إنّه لم يعد ذلك الرجل الوحيد المحتاج إلى العناية، استعاد قوّته دفعة واحدة، ولم يفقد توازنه، يفكّر دون غضب، لا يجامل ولا ينساق وراء الأوهام. فهم بلبل حقيقته أيضاً، لقد تغيّر كثيراً، والوحدة الّتي يتحدّثون عن فضائلها ليست بهذه الروعة. ما زال يذكر كيف تغيّر اسمه من نبيل إلى بلبل، بدأت لميا بمناداته بلبل تحبّباً، وفي أوّل أيّام وحدته بدأ يحبّ مناداة الجميع له كما كانت لميا تفعل، نسي اسمه الأصلي، لم يعد يذكره كثيراً، حين يراه في الأوراق الرسميّة يشعر بغربة كبيرة عنه، بلبل أكثر خفّة وإنسانيّة بالنسبة له. اسم نبيل يوحي بشخص متّزن ولديه أحلام كثيرة. في الآونة الأخيرة فقد حتّى رغبته في الحلم والتخطيط للمستقبل، رغبته في تنفيذ وصيّة أبيه كانت اختبار إرادة لما بقي منه، كان يجب فعل شيء كي لا ينتهي ويغور في أعماق الأرض.

الجثّة الّتي تتهادى هي الحقيقة الوحيدة الباقية له، تُشعره بأنّه كائن حقيقي، مجموعة كبيرة من أحاسيس دنيويّة يمكن لمسها باليد، يستطيع أن يفعل شيئاً وليس كتلة هلام، لديه عائلة وما زال أمامهم مسافة طريق طويل ليتحدّثوا كإخوة، امتلاك الجميع سرّ أبيه



جعله يشعر براحة غريبة، هما أيضاً تواطآ في هذا الأمر، يكفيه تأكيد شكوك فاطمة وحسين دون تفاصيل، لن يعلقا في هذه اللحظات، لكن بعد دفن الجثّة وعودتهم إلى دمشق، لن يمرّ الأمر بهذه البساطة، من واجبهما الدفاع عن صورة أمّهما، مؤكّد هما لا يرغبان في تقاسم إرثهما مع شخص زائد.

قطعوا خمسين كيلومتراً في أربع ساعات، عناصر الحواجز الثلاثة تساهلوا معهم حين رأوا الجثّة منتفخة، الحاجز الأخير سمح لهم بالعبور من الخطّ العسكري، فعاد إليهم الأمل بوصولهم قبل المساء إلى العنابيّة. في الطريق بقايا المعارك واضحة للعيان، دبّابات محطمة، سيّارات محترقة، بقع دم متيبّسة، البيوت القريبة من الطريق مدمّرة، مهجورة، وفي البعيد تبدو بيوت أخرى محترقة، وشوارع قرى صغيرة يتحرّك فيها عدد قليل من البشر أو الحيوانات، شبه مهجورة لا توحي حركتها الصباحيّة سوى بالموت والنزوح. مرّت سيّارة «دوبل كابين» مليئة بجنود مدجّجين بالسلاح، طلبوا منهم ومن السيّارات الأخرى التوقف، وإفساح الطريق لعبور رتل سيّارات شاحنة محمّلة بالدبابات، تحاشوا النظر إلى الرتل، اقترب حسين وحاذى سيّارة خاصّة يقودها رجل ستّيني، معه زوجته وابنته الصغيرة الّتي لم تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها، خلفهم توقّف بولمان يقلّ ركاباً في طريقهم إلى حلب، نزل بعض ركّابه للتدخين، شاركهم حسين الحديث مشيراً بيده إلى بلبل وفاطمة، وافق على كلامهم بهزّ رأسه، صورة مثاليّة لبشر جمعتهم المآسي على طريق بعيد، يحاولون طرد خوفهم بالحديث عن أيّ شيء.

الرتل لم ينته، الطائرات تحوم في السماء، يرونها تقصف مكاناً غير مرئيّ بالنسبة إليهم، الأصوات توحي بقوّة الموت القريب منهم، رتل سيّارات طويل وركاب محاصرين يفكّرون بلا جدوى الحرب،



استسلم الجميع ولم يفكّروا بالهرب، إلى أين سيهربون؟ عاد حسين إلى السيّارة، الجميع حاولوا الالتصاق أو البحث عن أيّ مكان للاختباء، قلّة قليلة بقيت تمارس السأم والتدخين. مرّت دقائق الرعب، غادرت الطائرات، وعاد الصمت يخيّم على البراري المفتوحة على المدى، السيّارة الأخيرة المرافقة لرتل الدبابات سمحت لهم بالسير مع تحذير بمنع التجاوز.

كانت الساعة تقترب من الواحدة ظهراً، لقد ضاع أملهم مرّة أخرى في الوصول قبل المغرب إلى العنابيّة، سيّارات كثيرة غادرت دفعة واحدة، الجميع يريد الوصول قبل هبوط الليل. بعد خمسة كيلومترات توقفت جميع المركبات مرّة أخرى، السيّارات الّتي حاولت تجاوز الرتل عادت ولوّح سائقوها للجميع بالعودة، صوت الرصاص الغزير قريب جداً، وراء تلك التلّة القريبة الّتي لا تبعد مئات الأمتار.

فكّر بلبل في ورطتهم، أين سيذهبون؟ لا مكان سوى هذا العراء، توقّفوا قرب أحد الباصات كما توقّفت قربهم بضع سيّارات خاصة، لم يطل توقّفهم أكثر من ساعتين، توقّف صوت الرصاص، وتبادل الجميع خبر مهاجمة كتائب من المقاتلين رتل الدبابات وانسحابهم إلى مواقعهم، الرتل انعطف في الطريق العسكري الواصل إلى قرى حلب الجنوبيّة، أكثر من خمس دبّابات محترقة، في داخل إحداها أشلاء ميت تركه رفاقه طعاماً لحيوانات البرّية المتوحّشة.

كانت جثّة وحيدة، وما زال الدخان يتصاعد من باقي الدبّابات، فكّر بلبل بهذه الجثّة وخشي أن يراها حسين، ويعيد الأسطوانة نفسها بأنّ الجثث غير مهمّة في الحرب، من الممكن اكتفاء الأحبّة بقميص ممزّق، أو رجل مقطوعة وملفوفة بكفن ضمن تابوت لا يمكن فتحه، عائلات كثيرة دفنت أحبّتها دون أن يشاهدوا المنظر الفظيع لجثث مقطّعة الأوصال.



فكّر بلبل، لو لم يكن أبوه جثّة لشرح لهم تضاريس المنطقة، لأخبرهم بأسماء القرى، وطبيعة مناخها وما تشتهر به من مزروعات وارتفاعها عن سطح البحر، كانت هوايته الأثيرة شرح تفاصيل جغرافيا كلّ منطقة يمرّ فيها، لكنّه جثّة لا تقوى على شيء.

بدأ المساء يهبط، لن يصلوا إلى العنابيّة قبل آخر الليل، أقنع بلبل نفسه، كلّ شيء سيكون سهلاً بعد وصولهم إلى حلب، مسافة الأربعين كيلومتراً بين حلب والعنابيّة سيجتازونها بسهولة، خاصّة أنّهم أبناء المنطقة وينتمون إلى عائلة معروفة، أبوه الّذي هرب من العائلة منذ خمس وأربعين سنة سينقذه اسمها. أخبر حسين وفاطمة بهواجسه المتفائلة لكنّ صمتهما لم يعجبه، تساءل حسين بيأس لكن متى نصل إلى حلب؟ وجه فاطمة الخائف أوحى لهما بأنّ خروجهم من مأزق وجودهم على طريق شبه مقطوع، يمرّ في قرى مهجورة وبراريّ واسعة لا تُحدّ، لن يكون سهلاً. صمت حسين، أقنع نفسه بأنّ الصبر هو الشيء الوحيد الّذي قد ينقذهم، لم يعد يقترح دفن الجثّة في حفرة إلى جانب الطريق، أو في مقبرة إحدى القرى الصغيرة، على أن يعودوا بعد زمن لاستعادتها، فلن يسرق أحد جثّة رجل غريب، لكنّ الجثث لا تنتظر أيضاً، تتحلّل وتذوب في الأرض. حاولوا اختصار الحديث في ما بينهم، والاكتفاء بأجوبة مقتضبة عن أيّ سؤال. كان الثلاثة يفكّرون في اللحظة نفسها بحاجتهم إلى التواطؤ كعائلة من أجل إيصال جثّة أبيهم إلى مكانها الأخير، الثلاثة كانوا يفكّرون بعودتهم بعد الدفن إلى وحدتهم وعزلتهم، وخوفهم من النظر بعضهم في عيون بعض، لا يريدون اكتشاف حجم الشرخ الّذي يفصل بينهم. انتهت أيّام الطفولة السعيدة، حين كانوا يتبادلون الأسرار، ويعتقدون بهناء حياتهم وسهولتها، ما حدث لا يمكن تفسيره، لم يعودوا يشبهون أشخاص طفولتهم، حسين أكثرهم اغتراباً عن صورته، فاطمة وبلبل،



كما كان أبوهما من قبلهما، لا يصدّقان تغيّر حسين إلى هذه الدرجة، لم يعد ذلك الفتى القويّ، الذكيّ، الطموح، بل أصبح شخصاً مختلفاً، من لا يعرفه يظنّه من حلقة الباحثين عن انتحار سريع.

كان حسين أكثرهم قرباً ودلالاً من أبيه وأمّه، يحصد كلّ التقديرات في المدرسة، يقود فريق كرة القدم إلى انتصارات لا تخطر على بال، يهزم فرق مدارس ريف دمشق ويعود محمولاً على أكتاف زملائه، يقودهم بعد أيّام إلى مغامرات غريبة في حارات باب توما، يتسكّعون ويواعدون صبايا مدرسة البنات، يقضون ساعات طويلة في مقاهٍ تسمح للمراهقين بالتلامس والجلوس في الزوايا المعتمة متلاصقين، يخترع لهم أكاذيب تصدّقها عائلاتهم، ويقودهم في رحلات طويلة إلى بساتين الغوطة، حسين يعزف لهم على الغيتار أغنيات محمّد جمال وصباح، يختلي بحبيبته بين الأشجار البعيدة، يتبادلان قبلات طويلة ويلامس ثدييها، يشجّع أصدقاءه على العبث والمغامرة، يحفظ أسرارهم، يشكّل محاكم أخلاقيّة لمن يخرق اتّفاق السرّية، كلّ بنات جيله يثقن به، يطلبن منه موعداً، ليحلّ مشاكلهنّ الّتي غالباً ما تتعلق بسوء تفاهم بين مراهقين، كأن يهدّد أحد المراهقين حبيبته المراهقة بعد خلافهما بفضحها، وإرسال صورهما الشخصيّة إلى عائلتها، هنا يتدخّل حسين بقوّة، يحسم الموضوع ويتحدّث كأخ لهذه الفتاة وغالباً ما ينهي المشكلة، يساعده جسمه الرياضي وقوّته البدنيّة على التهديد، وخوض مشاجرات كثيرة انتصر فيها كلّها.

كلّ شيء في حياة حسين تغيّر حين أصبح طالباً في الثانويّة العامة، لم يعد شابّاً صغيراً حالماً، نضج بسرعة بعضلات مفتولة، جسده رياضيّ يوحي بقوّة فائضة، عشقته امرأة في الثلاثين من عمرها، تقطن شقّة مستأجرة تطلّ على أوتوستراد المزّة، حوّلته بعد



أشهر عديدة إلى بادي غارد يرافقها في مشاوير غامضة، يقيم عندها لأيّام ويعود منهكاً من السهر، لا يسمح لأبيه بنقاشه، وحين يحاصره بالأسئلة، يحمل حقيبته ويغيب لأسابيع لا أحد من عائلته يعرف مكان إقامته.

هجر المدرسة قبل إنهائه دراسته الثانويّة، وجد سعادته في حياته الجديدة، وفي تلك الليلة الّتي تناقشا فيها، تطاول على أبيه الّذي كان يحاول استعادته، بهدوء قال له يجب أن يتحدّثا كصديقين. شرح له حسين بمفردات قويّة وواضحة عدم رغبته في تكرار سيرته كمدرّس ورجل محترم من أهالي بلدة صغيرة، تحدّث عن كراهيته لعالم الضعفاء، ورغبته في العيش قرب الأقوياء، يتسلّل إلى حياتهم ويصبح واحداً منهم، يقاسمهم أرزاقهم، ويتمتّع في كلّ لحظة من الحياة بالجنس مع نساء جميلات وبالسفر إلى بلدان مختلفة، والعيش في أحياء راقية.

تمهّل الأب في ذلك النقاش، شرح لحسين مفهوم قوّة العقل، غرق مرتبكاً في مصطلحات لم تستطع إقناع ابنه الّذي قال حقائق قاسية لا يمكن نكرانها، قال له إنّه أهمّ مدرّس جغرافيا ويتقاضى راتباً لا يكفيه لمدّة أسبوعين، تضطرّ زوجته للعمل في فرط البازيلاء والفول وتقشير الثوم مقابل أجر زهيد يدفعه أصحاب بقاليّات المناطق الغنيّة، أضاف بهدوء لا يريد لزوجته تقشير الثوم وحفر الباذنجان والكوسا للنساء الغنيّات لقاء قروش قليلة.

أضاف حسين محدّثاً أباه بلهجة هادئة أنّه يعرف كلّ شيء عن البرازيل وتضاريس جبال الألب، لكنّه لا يعرف شيئاً عمّا يدور في بيوت جيرانه، لا يعرف أنّه في هذه المدينة الفاضلة عائلات تبيع بناتها لسيّاح عرب، طالبي متعة شرعيّة عابرة، وموظفات يخرجن مع رجال من أجل حذاء رخيص. اختنق صوت أبيه، لم يعد يعرف كيف



يدافع عن نفسه، أصبح متّهماً مع كلّ أبناء جيله، خوفهم وجبنهم أسهما في وصول البلاد إلى بيع بناتها.

لغة غريبة استعملها حسين، صمت فجأة وشعر بأنّ أباه سيموت في اللحظة ذاتها، لم يصدّق عبد اللطيف أن ابنه الّذي لم يبلغ التاسعة عشرة من عمره، لا يكترث بقيم كانت تعني للأب كلّ شيء كالشرف والنزاهة والأخلاق. قبل نهوضه المتثاقل ومغادرته المنزل، أضاف حسين أنّ هذه القيم لا تساوي شحاطة أمّه البلاستيكيّة، مقترحاً عليه مرافقته لمدّة ثلاثة أيّام ليريه عجائب المدينة. رفض الأب ركوب سيّارة حسين الغولف موديل 1976 الّتي اشترتها له نغوم، لتسهيل عمله مرافقاً لها ولرفيقاتها في مشاويرهنّ الخاصّة، الزبائن لا يبخلون عليه بالنقود لتأمين طلبات خاصّة، قطعة حشيش أو غرامات قليلة من الكوكايين، كلّ ما يحتاج إليه زبون يدفع نقوداً ليتناول غداءه في أحد مطاعم بلودان مع فتاة لا ترتدي تحت البالطو سوى قميص نوم خفيف.

لم يستطع عبد اللطيف النطق سوى بكلمات قليلة، قال لحسين لا تستطيع أن تكون قوّاداً وابناً لي. لم تعجبه كلمة قوّاد، أخرج هويّته الشخصيّة وقصّ اسم أبيه، قال له: سأضع مكانه كلمة خراء، ثمّ غادر المنزل مسرعاً تاركاً وراءه ذهولاً رهيباً.

لم يره أحد من عائلته مدّة سنتين، منع الأب الجميع من ذكر اسمه، اعتبر ما حدث بينهما كفيلاً باعتباره ميتاً، لكنّ امرأة لم تعرّف عن نفسها أبلغتهم عبر الهاتف أنّ ابنهم نزيل في قسم المخدّرات في سجن عدرا.

حسين الّذي كان فخراً لأبيه أصبح عاره، وبلبل لا يصلح كبديل. ذلك الأمر لم يكن يزعج بلبل. ضعفه وخوفه اللذان يلازمانه مذ كان طفلاً لا يعجبان أباه، الضعفاء لا أحد يراهن عليهم، قوّة العقل الّتي



يتحدّث عنها الأب كانت التناقض الوحيد لديه، هو الّذي يقدّر قوّة حسين بينما يرفض الرهان على قوّة عقل بلبل. وبلبل كان سعيداً في الإهمال، لا يريد أن يكون فرس سباق، طاقته لا تكفيه لتحقيق أحلام عائلة لم تُهزم فحسب، بل كانت الهزيمة كلّ يوم تنمو في قلوب أفرادها وفي زوايا بيتهم.

كلام حسين القاسي جعلهم مصدومين من حقائق كانوا يتحاشونها، يعيشون في هذه البلدة الصغيرة منذ أعوام طويلة، لكنّهم ما زالوا غرباء، رغم اعتقادهم دوماً بأنّهم ليسوا فقراء، إلّا أنّهم في الحقيقة ككلّ أولاد الموظفين فقراء. كلّ ما يحيط بهم وكلّ ما بناه الأب حوّله حسين في لحظات إلى ركام، لم يجرؤ الأب على العيش في دمشق خوفاً من الضياع، تعجبه التجمّعات الّتي تربط ما بين أفرادها صلات عائليّة أو حزبيّة، لم يكن يحتمل فكرة العيش في المدن الكبرى كغريب، لكنّه في النهاية أصبح الغريب الّذي لم يكن يريد أن يصبحه، فكلّما ذكّره أحد من أهل البلدة يعيد أصله إلى العنابيّة، ليس سهلاً الفكاك من الهويّة، كلّ شيء مضى، لم يعد الرجوع إلى العنابيّة مرّة أخرى مجدياً، لقد أصبح المكان بعيداً جداً، كلّ رفاق جيله ماتوا أو لم يعودوا لتذكر طفولتهم، أو أيّ شيء يربطهم كأبناء جيل واحد.

بعد خروج حسين من المنزل بقي الأب ثلاثة أيّام صامتاً، لا يخرج من غرفته، يتناول لقيمات قليلة وزوجته غير مكترثة. فكّر بلبل في مغادرة المنزل مؤقتاً، لن ينسى الأب ما حدث ما دام بلبل شهد كلّ شيء، استأذنهما بالسفر إلى العنابيّة، كانت فكرة جيدة للخروج من المأزق، قال لأمّه سأعود بعد أسبوع ويكون كلّ شيء على ما يُرام.

لم يكن هناك بيت جدّ في العنابيّة، بل مجموعة أقرباء تناسوا وجود أسرة بلبل مع مرور الزمن، بعد رفض الأب المشاركة في ثاراتهم العائليّة، الّتي اعتبرها تخلفاً لا يليق بأناس يعيشون في أواخر القرن



العشرين. كلّ سنة يقضي بلبل أيّاماً قليلة في العنابيّة، ينام في منزل عمّته أمينة الطيّبة القلب، تروي له سيرة العائلة، يحاول لملمة حكاية هجر أبيه لقريته وعائلته، دوماً تروي عمّته الحكاية ناقصة، وتقف عند ذكر حكاية الفرسان الثلاثة كما يسمّونهم في القرية، أبيه وعمّه جميل وابن عمّهم الثالث عبد الكريم، أوّل ثلاثة شباب حصلوا على الشهادة الثانويّة، قطعوا الدروب الترابيّة شتاءً شبه حفاة للوصول إلى مدرستهم في عفرين الّتي كانت في أوائل الستينيّات بلدة صغيرة، نظيفة، والطريق إليها شتاءً يحتاج إلى قوة بغل لقطعه كلّ صباح والعودة منه كلّ مساء، تحت الأمطار الغزيرة كان الثلاثة يقطعون الحقول سيراً على الأقدام، أحياناً ينامون في غرف رفاقهم أو في الجوامع حين تغلق السيول الطريق، لم يكونوا قادرين على استئجار غرفة صغيرة، تصميمهم على إنهاء الثانويّة العامة أجبر أهاليهم على اقتطاع مبالغ قليلة تكفي مصاريف دراستهم.

يفخر عبد اللطيف حين يروي سيرة عيشهم، شتاءات بأكملها يطبخون شوربة العدس والبرغل، ساروا حفاة إلى المدرسة، وزعوا مناشير حزب البعث وسُجنوا، تعرّضوا لسياط الجلّادين وصمدوا. كان العلم كفاحاً والسياسة تضحية ونضالاً، يختم حديثه الّذي كرّره على مسامعهم مئات المرّات. لا أحد في العنابيّة يتذكّر ذلك الكفاح الآن، لكنّهم لا ينسون عمّهم المقدّم جميل الّذي كاد بضربة حظ أن يصبح رئيساً للجمهوريّة، لولا خيانة أصدقائه الّذين وشوا به وبرفاقه، وقبضوا ثمن وشايتهم نفوذاً لم ينتهِ طوال السنوات الأربعين الأخيرة، تغيّرت الصورة تماماً، أصبحت العائلة كلّها خائنة، وأصبح الوشاة أبطالاً.

جثمان الأب الممدّد الآن على كرسيّ الميكروباص، المربوط بحبال كي لا يتزحزح من مكانه، لا يدلّ على قوّة يقين ماضي هذا الرجل الّذي بقي مؤمناً بما لا يقبل أيّ شك بتحرير فلسطين كاملة،



والصلاة مع رفاقه في المسجد الأقصى. قبل خمسين عاماً حمل حقيبته المصنوعة من التنك وغادر القرية، لم يستطع حتى مؤازرة أخته ليلى في رفضها الزواج برجل لا تحبّه، كانت تقول أحرق نفسي، **ولا أتزوّج برجل له رائحة البصل العفن.**

يوم عرسها الّذي أجبرت عليه، خرجت بثوبها الأبيض، وقفت على سطح البيت العالي، سكبت الكاز وأشعلت النار بنفسها، نفّذت تهديدها الّذي لم يأخذه أحد على محمل الجدّ، دارت حول نفسها، رقصت كمتصوّفة لتزيد من اشتعال النار في جسدها الّذي تحوّل إلى جثّة محترقة قبل وصول أحد إليها، كان عبد اللطيف يراقبها من بعيد، يبكيها بصمت كما يفعل أولاده الثلاثة الآن وهم يبكونه بصمت، رغم كلّ شيء يبقى الموت قاسياً.

حين تسير السيّارة يعود الثلاثة للتفكير في حياتهم، يحاولون نسيان ورطتهم في هذه الرحلة، قال بلبل لنفسه لو كنت أتوقع نصف ما يحدث الآن لدفنته في أيّ مكان، مغامرة إيصاله إلى رفاقه في البلدة «س» أسهل بكثير من تنفيذ وصيّته. وقعوا في الفخّ، وأصبحت جثّته وسيلتهم لإنقاذ أنفسهم، تثير التعاطف أحياناً، وتبرّر وجودهم معاً وعلى هذا الطريق في مثل هذا الوقت، كان فرصة حقيقيّة لاختبار مستقبل علاقتهم كأفراد عائلة واحدة.

الحاجز الأخير تعاطف معهم فشعروا بسعادة غامرة، فكّر بلبل بأنّه في الحرب يكفيك أشياء صغيرة للأمل، تعاطف عسكري على حاجز، حاجز غير مزدحم، سقوط قذيفة بعد مئات الأمتار عنك على سيّارة كانت تزاحمك على أخذ دورك، حياة جديدة منحتك إيّاها الصدفة، لو لم تزاحمك هذه السيّارة لسقطت القذيفة عليك، هكذا يفكّر البشر الّذين يعيشون تحت سقف الأمنيات الواطئ في الحرب.



تكمل الطريق مبتهجاً، تغلّف مشاعرك بالحزن على الضحايا، رأيت ما بقي من أشلائهم المتناثرة متفحّمة حين عبرتهم، تحتاج إلى هذه الرحمة والتعاطف كي لا تقف أمام ذاتك وتعترف بالحقيقة المرّة. في الموت العبثي يصبح الحفاظ على الذات مهمّة مقدّسة بقدر ما هي أنانيّة، خلال الألف ومئتي يوم الماضية كثيراً ما فكّر بلبل بالصدفة الّتي أنقذته، أصبح يقوم ببعض الأفعال لاستدراج الصدفة، حين يهمّ راكب ويدفعه للركوب في الميكروباص، يقول لنفسه تأخير صعودي إلى الميكروباص المقبل فأل خير، قد يصاب هذا الميكروباص في تفجير، أو يعلق في دائرة اشتباك فجائي، الموت يمرّ قربك ولا تستطيع الإمساك به، الموت في الحرب أعمى لا يتأمّل ضحاياه.

لأوّل مرّة يفكّر بلبل في الطريق، تقلّباته، طقوسه، إنّه يشبه المسافرين. في الصباح الباكر رأى الأشجار البعيدة قد استيقظت لتوّها، والتراب النديّ على الجانبين، منحه شعوراً بالأمل، بعد الظهر شعر بتعب الطريق ككلّ المسافرين، الجوّ المتقلّب أوحى له بليلة غير عاديّة، عواصف تهبّ بهدوء ثمّ تهدأ، الثلاثة مشغولون بالوصول، لن تحتمل الجثّة ليلة أخرى، بدأت تتفسّخ، لم تعد تجدي روائح الكولونيا الّتي ترشّها فاطمة بيأس من يحاول تجميل الكذبة للمرّة العاشرة خلال ساعات قليلة.

هدوء حسين ساعدهم على الاسترخاء، أجّلوا تبادل الاتّهامات الّتي كانوا يفكّرون فيها، بلبل المتّهم الأكبر، ورّط الجميع في رحلة الجحيم هذه، لم يعودوا يثقون بنهايتها، شجاعتهم الّتي فاخروا بها تحوّلت إلى كابوس، لحظة طيش غير محسوبة، لكن في أعماق بلبل، كان ثمّة رضى خفيّ يتسلّل، لم يعد الكائن نفسه الّذي كانه خلال السنوات الأربع الماضية، تمنّى لو عاد كلّ شيء إلى بدايته، لبصق في وجه جيرانه التافهين، لتجسّسهم الدائم عليه وعدم ثقتهم به.



بدأ يفهم سرّ قوّة أبيه الّتي استعادها، اندملت جروحه دفعة واحدة، لم يعد تلك السمكة النتنة الّتي تنتظر رميها في أقرب حاوية، تألّقت عيناه، جسمه استعاد شبابه، كما استعاد أناقته، يحلق ذقنه، يرتدي أفضل ثيابه، كشابّ صغير استعاض عن بدلاته العتيقة ببنطلون جينز مريح، وقميص شبابي، وحذاء رياضي يساعده على الهرب من الرصاص والقنّاصة، لا ينتظر مرور التظاهرة من أمام منزله، بل يذهب إلى الجامع قبل ساعتين من صلاة الظهر، لم يصلِّ في حياته، الجميع يعرفون أنّه هنا في انتظار التظاهرة، يتحدّث إلى شباب صغار ولا يستمع إلى رجائهم له أن ينتظرهم أمام منزله حيث تمرّ التظاهرة كلّ يوم جمعة، يفكّر بالهتافات، ويناقش بصوت هادئ الأفكار الجديدة مع الشباب، عاد إلى قراءة تاريخ الثورات ووضع خطوطاً تحت الكثير من الأفكار، يقدّم شرحاً وافياً لتاريخ الثورات الكبرى في التاريخ، حماسته الفائضة جعلت منه أيقونة، استعاد دوره في البلدة كمعلّم محترم ما زال تلاميذه يذكرونه بكلّ خير، عاش معهم مرارة وبهجة الثورة في كلّ أطوارها. حين التقاه بلبل للمرّة الأخيرة، لم يكن ذلك الرجل العجوز المليء بالمرارة والخسارات، الّذي ينتظر الموت، كان رجلاً نشيطاً لا يتوقّف هاتفه عن الرنين، لديه أمل كبير بالعيش حتى لحظة سقوط النظام، وتنفّسه الحرّية الّتي انتظرها طويلاً.

أوائل شهر أيّار عام 2011 فوجئ بلبل بلميا تقرع باب منزله، كانت عيناها تشعّان قوة، قالت له لا وقت لدينا، سنذهب إلى بلدة «س». لم تنتظره، وأكملت أنّها ستشارك في تظاهرة اليوم. لم يستطع بلبل التملّص منها، وصلا الساعة العاشرة صباحاً، احتضنت الأب وبدأت معه حديثاً غريباً عن بلدتها الميتة الّتي تنتظر الشرارة، استعاد بلبل شخصيّته الأخرى وخرج معهما. كان خائفاً لكن حين التأموا بالحشد الكبير شعر بتفكّك حياته الماضية، مشاعر غريبة



انتابته وهو يهتف متحدّياً، كان صوته ضعيفاً في بادئ الأمر، قريباً من الخرس، عكس الأب ولميا اللذين رفعا أيديهما بقوة في الهواء، صوتهما كان قويّاً كما صوت أكثر من عشرين ألف شخص كانوا يهتفون بصوت واحد في اللحظة نفسها، أصواتهم تزلزل المدينة الّتي يحرس مداخلها شباب يراقبون الطريق، يرسلون إشارات لباقي المتظاهرين حين يلمحون العربات المحمّلة بالجنود قادمة نحو مدخل المدينة. بعد نصف ساعة اندمج بلبل وارتفع صوته، كان يشعر ببهجة عارمة، لحظة دفن الخوف تشبه متعة أوّل لذّة جنسيّة. حاول استعادة تلك اللحظة مراراً، لم يستطع نسيانها، كما لم يستطع استعادتها أو محاولة الرجوع إليها، كانت لذّة لمرّة واحدة لم تكتمل، بقيت معلّقة في حياته كبندول ساعة دائم الحركة، رغم توقّف عقاربها عند لحظة واحدة. أكثر من عشرين سيّارة مدجّجة بعناصر المخابرات المسلّحين بالرشاشات، داهموا التظاهرة، فتحوا النار من مسافة قريبة، رأى بلبل الأجساد تتساقط في مشهد فظيع، لميا انبطحت على الأرض، ساعدها شابّ قربها، التقط ذراعها وهربا في الزقاق الضيّق، كانا قريبين من منزل الأب الّذي ظلّ واقفاً، لم يتزحزح عن مكانه، كان يريد حصّته من الموت، بقيت الجثث على الأرض، انسحب عناصر المخابرات بعد أقلّ من ساعة كانت كافية لإتمام المجزرة، وصل بلبل إلى المنزل، سبقته لميا، سألته عن أبيه، قال لها إنّه بقي واقفاً، كمن ينتظر رصاصة الرحمة. مرّة أخرى تعالى صوت الرصاص، سمعا أصوات الشباب الراكضين يشتمون النظام وعناصر المخابرات، انتبهت لميا وفتحت الباب حين رأت أنّ كلّ الجيران فتحوا أبواب منازلهم لإيواء الهاربين من الرصاص.

كان يوماً عظيماً عاشه الأب أكثر من ألف مرّة. أمّا بلبل، فقد اكتفى بهذه الزيارة، ولميا لم تعد تقرع باب بيته صباحاً لتصحبه معها



إلى منزل أبيه، أخبرته شعورها بقرابتها مع دم الشهداء الّذين سقطوا ذلك اليوم، بعد أن قضت ليلتها تلك مع الأب، يساعدان في معالجة الجرحى في منزل نيفين الكبير الّذي تحوّل إلى مشفى ميداني.

لم تنم البلدة، سهر أهل الشهداء قرب جثث أبنائهم، لم يتوقّف الجيش ودوريات المخابرات عن مداهمة البيوت، واعتقال العشرات من الشباب، بقي بلبل وحيداً في المنزل الكبير، الأب ولميا لم يعودا قبل الفجر، سمعهما يتحدّثان عن الجرحى بالأسماء. كان نومه متقطعاً، لكنّه لم ينهض من سريره، نامت لميا في غرفة فاطمة، سمع أبوه يرجوها إيقاظه صباحاً ليلحقا بالتشييع.

استيقظ بلبل صباحاً ولم يجرؤ على الهرب، خاف أن تنظر إليه لميا كرجل جبان، حاول القيام بعمل يبهجها، حضّر إفطاراً كبيراً، تناولت والأب لقيمات قليلة، وشربا رشفات من القهوة وغادرا إلى المشفى الميداني، مكبّرات الجامع تدعو الناس إلى صلاة الجنازة بعد صلاة الظهر، التحدّي كان في أوجه. فكّر بلبل بالخوف حين يموت في قلوب البشر، وينتقل إلى الجهة الأخرى، قالت له لميا إنّها رأت الجنود مذعورين لحظة فتحهم نار بنادقهم على أناس عزّل، قال بلبل لنفسه إنّها دلالات أدبيّة ليس أكثر. كيف يخاف من يحمل السلاح من أناس عزّل يلوّحون بأكفّهم العارية؟ لكنّه كان يصدّقها في الوقت نفسه، لا تجرؤ عيناها البريئتان على الكذب أو المبالغة، بالعكس، كانت دوماً متواضعة في تقديرها لذاتها، وتفخيمها للآخرين وتقدير دورهم في حياتها. كثيراً ما كانت تُشعر بلبل بأنّه شخص مهمّ جدّاً في حياتها، تطلب خدمات بسيطة وتبقى ساعات طويلة تشكره. إنّها من نوع البشر الّذين يعتبرون وجود الآخرين في حياتهم مكافأة. شعر بلبل براحة نفسيّة، لم يطلبا منه مرافقتهما إلى المشفى الميداني، عاد إلى السرير، لم ينهض حين اقتربت الجنازة المهيبة من المنزل،



فضول قويّ منعه من أن يغفو مرّة أخرى، صعد إلى السطح، ورأى طوفاناً من البشر، زغاريد نساء وورود تُرمى من الشرفات وأرزّ، صعد أبوه درج الكنيسة مع الأب وليم، أمسكا بالجرس الكبير، قرعاه بكلّ قوتهما، بينما أكثر من عشرين ألف شخص كانوا يرفعون قبضاتهم في الهواء، ويردّون التحيّة. كان المشهد مهيباً، لم يشعر بدموعه وهي تنساب على خدّيه، كانت لميا وسط الحشد تبكي بحرقة وتهتف بقوّة، رأى من مكانه حبالها الصوتيّة تكاد تنفجر. مرّت الجنازة وبعد دقائق سمع بلبل صوت رشقات رصاص، قُتل ستّة شبّان وامرأة كانت قريبة من لميا الّتي بقيت طوال الليل تهذي، لم يستوعب عقلها ما حدث. ازداد خوف بلبل وشعر بنفسه محاصراً، الأب يذرع الصالون غاضباً، يتحدّث في الهاتف مع صديقه نادر معلّم الرياضيّات ويخبره أنّه سيسبقه إلى المقبرة، أغلق هاتفه وخرج مسرعاً، لحق به بلبل في لحظة طيش لم يظنّ أنّه قادر عليها، لكنّه كان غاضباً أيضاً.

لميا لم تستمع إلى كلمات أبيه الّذي قال إنّ النساء لا يحضرن الدفن، لحقت بهما، ساروا هم الثلاثة، شوارع البلدة موحشة، رائحة الموت تفوح من البيوت والأزقّة، الكهرباء مقطوعة، الظلام يلفّهم، عبروا الزقاق الضيّق وكان الرجال يتهيّأون للصلاة على الجثامين الستّة، لميا تابعت طريقها إلى مجموعة نساء من قريبات الشهداء، جلس بلبل على شاهد قبر يراقب من بعيد، أصدقاء طفولته قبّلوه على عجل، وتابعوا طريقهم إلى حيث الرجال يكملون طقوس دفن الشهداء الّذين كانت وجوههم تلمع تحت ضوء القمر المكتمل.

كانت لميا ممتلئة غضباً وهما يغادران البلدة، تشتم النظام بكلمات بذيئة، كان بلبل صامتاً، لا يعرف كيف يستطيع التخفيف من غضبها، فجأة تركته في البرامكة، قبّلته مودّعة، وأوقفت تاكسي يقلّها إلى الكراج. بقي بلبل وحيداً وسط الزحام، أرنب صغير وسط



طوفان البشر، دوماً في الزحام تكون الوجوه حياديّة، تلهث للخلاص من الجماعة.

حاول بلبل النظر إلى جانبي الطريق، لو ينتهي هذا الكابوس ويصلون إلى العنابيّة، سيغسل يديه من الماضي كلّه دفعة واحدة، لم يعد لديه أب ولا أمّ، وما يربطهم كإخوة وعائلة قد انتهى، سيوصي ابنه بدفنه في أقرب مقبرة، لا يريد لأحد قراءة الفاتحة على قبره، ماذا تفيد الفاتحة ميتاً، كلّ ما يفعله الأحياء من أجل الميت يخصّهم وحدهم، يرضي غرورهم، الجثّة جزء من مكانتهم الاجتماعيّة، وثرثرتهم في تذكّر محاسن الأموات، أشخاص قلائل سيحتجّون لو رموا جثّة أبيهم في العراء، هم أيضاً يغامرون الآن ليحوزوا نظرات الإعجاب من أصدقائهم وأقربائهم، لم تعنهم هذه النظرات سابقاً، لكنّهم يخافون من إصابتهم بهوس البحث عن الجذور، وقتها يجب أن يكونوا جزءاً من المنظومة الّتي توزّع شهادات الأخلاق في هذه الجماعة المتّحدة في عزلتها.

فقدوا إيمانهم بوصولهم إلى العنابيّة، تبادل بلبل الأدوار مع حسين الّذي أصبح فجأة رجلاً حكيماً، يمتدح أباه ويهدّئ من روع بلبل وفاطمة، الحاجز التاسع الّذي قطعوه كان جنوده لطفاء معهم، طلبوا منهم زيادة السرعة إذا أرادوا الوصول إلى العنابيّة قبل منتصف الليل، نبّهوهم إلى الحاجز المقبل، قالوا إنّه يخصّ رئيس أحد الفروع الأمنيّة، نصحوهم بالردّ على الأسئلة باختصار وعدم الاعتراض، كانوا جنوداً بائسين، منذ عدّة أشهر لم يذهبوا في إجازة، تهيّأوا نفسيّاً للحاجز الأخير، ترك بلبل الأمر لحسين باتخاذ قرار الوقوف في ممرّ البضائع أو ممرّ الركاب. وقف حسين قبل الازدحام بأمتار وأسرع إلى الضابط، حدّثه وطلب منه السماح بالمرور نتيجة ظرفهم الخاصّ، تشكّى له من انتفاخ الجثّة الّتي قد تتحلّل، أتى الضابط معه وألقى



نظرة على الجثّة، أمرهم بالعودة إلى ممرّ البضائع محتفظاً بهويّاتهم في يده، عاد حسين إلى السيّارة، قال: حين ندخل إلى الأراضي المحرّرة سيكون كلّ شيء أسهل، هويّتنا ستساعدنا على العبور السريع، كانت فاطمة تغمض عينيها وتتمتم بأدعية، خطر لبلبل وهو ينظر إليها أنّ هذه الرحلة جعلت منها امرأة هرمة، اليأس تسرّب إلى قلبها، قال لحسين إنّهم ما زالوا يمتلكون القليل من النقود قد تساعدهم في العبور واستعادة هويّاتهم بسرعة، أشار حسين ببرود إلى حصارهم، أصبحوا داخل الممرّ المغلق بكتل إسمنتيّة ضخمة، وقعوا في فخ لن يستطيعوا الخروج منه قبل مرور كلّ السيّارات الّتي أمامهم، والنقود لن تساعدهم في أيّ شيء.

كانت السيّارات من الطرف الآخر تسأل حسين عن الطريق، فيجيبهم ساخراً: هناك دوماً أحد ما يعرف الطريق والجميع يتبعه، فوجئ الرجل الّذي فتح نافذة السيّارة حين أخبره حسين دون سابق إنذار بأنّهم يحملون جثّة لذا هم في ممرّ البضائع، حاول الرجل التملّص من النظر إليهم، وإكمال حديثه مع زوجته البدينة الّتي تنظر بطرف عينها إليهم، انتابت حسين موجة مرح فظيعة، سأل سائق سيّارة صغيرة عن حبّة أسبيرين لأنّ رائحة الجثّة صدعت رأسه، تابع الرجل انتظامه في الدور، لم يردّ على حسين الّذي قال: التسلية ضروريّة، بعد ساعات سنموت من البرد أو من رائحة الجثّة. لقد بدأ يفقد أعصابه، أصبح شخصاً آخر، رفع صوت المسجّلة قليلاً، وبدأ يصفّق مع إيقاع الأغنية، نظرت إليه فاطمة بغضب لكنّه لم يكترث، صلّى بلبل في قلبه لكلّ الآلهة لانتهاء مهمّتهم على خير، والمحافظة على عقولهم، لا أحد يستطيع تقدير ردود فعل حسين، بلبل لن يستطيع إكمال الطريق وحده، يحتاج إلى حسين بعقل سليم، يعرفه حين يكشف عن وجهه الآخر، يسخر من كلّ شيء، كان جرح



حياته عميقاً، خسر كلّ أحلامه وحاضره ما هو إلّا انتظار عدمي للا شيء، سيبقى سائقاً خاصّاً لمجموعة راقصات روسيّات يعملن في أحد ملاهي دمشق، ينتظر خروجهنّ من الفندق الرخيص لينقلهنّ إلى الكباريه، ويعود في الرابعة صباحاً لتكرار الفعل نفسه، حياته أصبحت مشواراً واحداً لا يحيد عنه، وفي النهار يهرب من منزله ويعمل سائق ميكرو سيرفيس.

ليس من أجل هذا ترك منزل العائلة، كان يحلم بأمبراطوريّة يقودها بنفسه، لا أن يصبح سائقاً تافهاً لمجموعة نساء يأمرنه أحياناً بالتوقّف لأخذ ورقة من زبون دوّن عليها رقم هاتفه، يشعر بأنّه في تلك اللحظة حشرة حقيرة، أو كما وصفه أبوه، قوّاد رخيص، يعمل مجّاناً مع مافيا صغيرة، تبيع كلّ شيء لمصلحة مافيا كبيرة معروفة العناوين، ترتبط بالأجهزة الأمنيّة، تعمل جهراً على بيع الرقيق الأبيض والحشيش والكوكايين والهيروويين، لكنّه في الطبقة السفليّة من خدم هذه المافيا، لا أمل لديه بالترقّي ليصبح عضواً فيها، لقد انتهى كلّ شيء بالنسبة إليه، لم يعد يصلح لشيء.

تمادى حسين، بدأ يغنّي بصوت مرتفع مع الراديو الّذي كان يبث أغنية لسارية السواس، ضاعت مهابة الموت، فاطمة تنظر إلى بلبل، تحاول طرد خوفها، المشهد كان طريفاً بالنسبة إلى بلبل، تمنّى لو شاركه الغناء، هذا العبث لا يهزمه سوى الغناء أو الضحك، كثيراً ما رأى أناساً يجلسون في العزاء صامتين واجمين، يتحاشون النظر بعضهم في عيون بعض كي لا يضحكوا دون توقف ويفسدوا العزاء. سينتظرون طويلاً إذا بقيت الأمور تسير بهذا النحو البطيء، الجنود على الحاجز كانوا يدقّقون في كلّ شيء، الهويّات، الحقائب، الأكياس، يفتّشون السيّارة بدقة، يوجهون أسئلة غير متوقعة عن العمل والجهة المقصودة، الأسئلة قد تكون عاديّة، لكنّها مربكة حين



توجّهها مجموعة مسلّحة هي أقرب إلى العصابة منها إلى فصيل نظامي له شارات وعناوين واضحة. العناصر الواقفون على الحواجز أيديهم على الزناد، وألبستهم وعصبات رؤوسهم تشي بانتماء طائفي، أعلام حزب الله تختلط مع أعلام أخرى خضراء لفصائل شيعيّة عراقيّة كانت على الأرض تعمل مع مجموعات كثيرة أسّسها النظام للقتال، لا شيء يضبط سلوكها، ببساطة يحاكمون أيّ شخص على أيّ خطأ، يعدمونه برصاصة ويرمونه في قبر جماعي أو يتركونه لأهله لحمله والهرب بعيداً.

بعد ساعة ونصف من الانتظار وصلوا إلى الحاجز، صمتوا جميعاً، فوجئ العنصر الملتحي بالجثّة، شرح حسين كلّ شيء بلهجة مكسورة، بحث عن تعاطف مع جثّة تشوّهت، ارتخى نسيج الجسد، والمسامات تفكّكت، زرقة غطت الجزء السفلي، البطن بدا منفوخاً، لم تعد تنفع العطور، طلب منهم العنصر الوقوف على يمين الطريق والنزول من السيّارة، بعد نصف ساعة أصبح منظرهم مثيراً للشفقة، فاطمة ترتجف من البرد، حسين ينظر مستجدياً، لم يكلّمهم أحد أو يسألهم أيّ سؤال. الدخول في نفق الانتظار مهلك، أحياناً كان الجنود يجرّون شباباً من الباصات، يقتادونهم إلى المبنى القريب، ويسمحون للباص بالعبور.

إنّه ليس حاجزاً بل ثكنة صغيرة، تحيط بها دبّابات وعلى سطح المبنى يتمركز قنّاصون مرئيّون للجميع، دوماً متأهّبون للقتل. أصوات الرعد لم تعد بعيدة، العاصفة قادمة، يفكّر بلبل في الوقت الّذي يمرّ بطيئاً، ماذا لو بقوا هكذا يوماً كاملاً أو أسبوعاً، من يستطيع إقناعهم بأنّ جثّة أبيهم تستحقّ المغامرة والتضحية، يجب التعامل معها باحترام حتى لو كان الموت يحصد المئات يومياً في طول البلاد وعرضها.

تبادل بلبل نظرات متفاهمة مع حسين، سار نحو عنصر آخر كان يدخّن بهدوء، حاول شرح وضعهم له، يجب أن يصلوا قبل منتصف



الليل كي يتجنّبوا الوباء، أشار إليه بمراجعة الضابط داخل المبنى، مضيفاً لن يمرّوا دون إذنه. الجثّة بالنسبة إليهم شيء يثير الغثيان ولا هويّة لها، ليست بضاعة وليست بشراً، البشر بعد الموت يتحوّلون إلى نوع ثالث، ليسوا أحياءً ولا جماداً، تُقفل بهم السجلّات، يُشطبون من دفاتر العائلة بخطّ أحمر، وتُرمى أشياؤهم إلى المزابل، أو يصادرها أشخاص قريبون أو بعيدون، لا أحد يسأل شراشف السرير عن حرارة الأجساد حين تلتهب حبّاً. بعد طيّ الملفّ تتساقط الذكريات شيئاً فشيئاً من ذاكرة الأحياء وينتهي كلّ شيء إلى العدم.

وقف بلبل أمام الضابط بوضعيّة الاستعداد، شرح له بصوت مرتجف مشكلتهم مع الوقت، تحدّث عن كرامة الميت ولم يقل بورطتهم مع هذه الجثّة، بدا بائساً يستجدي شيئاً، لكنّه لم يتشكَّ، ورغم ذلك توضّحت له صورته الّتي يكرهها، لو كان شجاعاً لقال كلاماً مختلفاً عن حقّه في العبور والوصول بجثّة أبيه إلى المقبرة في الوقت المناسب. الضابط نظر إليه ببرود، اعتاد تملّق الواقعين في فخّه، يفكّر بكراهيتهم له وعدم رحمتهم إذا وقع في فخاخهم. تبادل الصور بين الجلّاد والضحيّة أبدي، يفكّر بلبل بالمطر الغزير في الخارج، وصوت العواصف الشديد، سيحلّ الليل بعد قليل، لن يستطيعوا إكمال الطريق في هذا الجوّ العاصف، قال الضابط إنّ عبور الجثث ممنوع، ولأنّه يصدّقهم ينتظر تأكيد المشفى على صحّة شهادة الوفاة، تبرّع بلبل بالاتّصال من موبايله بالطبيب، لكنّ الضابط قال له بلهجة قاطعة: الحياة والموت مجموعة أوراق رسميّة، أشار إلى فاكس بقربه على الطاولة، فاستأذنه بلبل في الاتصال بأحد يستطيع مساعدتهم في المشفى، أشار إليه بالموافقة، فطلب رقم الطبيب، شرح له المشكلة، وعده بالبحث عن الفاكس والردّ عليه في أسرع وقت. لم يعد يملك نقوداً، أنّب نفسه لتفريطه بالنقود ولم يحسب حساب طريقهم



الطويل، كان يجب تقسيم المبلغ على عدد الحواجز، لا شيء لديهم يبيعونه هنا، والألفا ليرة الّتي في حوزتهم لا تكفي لشراء أيّ شيء. أخبره الطبيب بأنّ جهاز فاكس المشفى معطّل منذ ثلاثة أشهر. تذكّر خاتم فاطمة، موبايله قديم لا يساوي أكثر من ألف ليرة، حسين لن يتخلى عن موبايله. عاد تحت المطر الغزير، شرح لفاطمة وحسين اللذين عادا إلى السيّارة للاحتماء من المطر، كانا مبلّلين، فاطمة تدسّ قدميها تحت البطانيّة الّتي ما زالت تغطّي أباها، حسين يشرح لها عدم استطاعته تشغيل الشوفاج للمحافظة على المازوت.

تبادلوا نظرات ضياعهم في هذا العراء فاقدي الحيلة، إلى أن نقر عسكري على نافذة الميكروباص، أشار إلى بلبل بالنزول، أعطاه شهادة الوفاة، وقال إنّ الفاكس وصل من المشفى والضابط سمح لهم بالمغادرة. لم يصدّقوا أنّه سُمح لهم بمتابعة طريقهم، سار الميكروباص وحسين يحاول الابتعاد عن الحاجز، استعاد نشاطه، فاطمة تمتمت بأدعية غريبة، طلبت منه البحث بين كاسيتاته عن دعاء السفر، لم يردّ، تحدّث في الهاتف مع أحد أصدقائه، أخبره عن اسم القرية الّتي قطعوها منذ دقائق، قال له صديقه ما زال أمامهم على بعد عشرة كيلومترات حاجز أخير لجيش النظام، بعدها يدخلون إلى مناطق الجيش الحرّ. تفاءل حسين وركّز نظره في الطريق، توقّف المطر والرياح زادت قوّتها، يتمايل الميكروباص على الطريق والجثّة تفقد توازنها، أمسكها بلبل كي لا تقع، فكّر بتمديدها على أرض الميكروباص لترتاح، تراجع عن الفكرة، أيّ حركة قد تكشف عفنها وندوبها، تجاهلوا الرائحة الكريهة، اختلاط الكولونيا مع رائحة الجثّة أثقل الجوّ برائحة عفنة قاتلة، البرد الشديد في الخارج يمنعهم من فتح النافذة، إنّهم على حافة الإغماء، صمتوا، خافوا من الاعتراف



بندمهم، لماذا لم يبحثوا عن مقبرة أو جمعيّة خيريّة تتبرّع بتمويل قبر لجثّة رجل غريب عن المدينة؟

صمتهم يفضح خوفهم من الاعتراف بعدم احتمالهم أن يكونوا معاً في مكان واحد ليوم كامل، فقدوا براءة الطفولة، حين كانوا يشتاقون بعضهم إلى بعض كأيّ إخوة لديهم أسباب كثيرة للتعاطف. حين كبروا اكتشفوا أنّ ما يفرّقهم كثير، ورابطة الدم لا تكفي للعيش في كذبة الوئام العائلي الّتي تفسّخت منذ زمن بعيد. حين قال حسين كلّ ما يفكّرون فيه، دفع ثمن تهوّره، وبقي بلبل يعيش كذبة الاحترام والروابط العائليّة المقدّسة. مرّات كثيرة كان يودّ القول لأبيه إنّه كان قاسياً معهم ورقيقاً مع طلّابه والغرباء، كانت صورته في الخارج هي المهمّة، يعنيه كثيراً ما يقوله الآخرون عنه، معتقداً بأنّ أفضل نموذج لهم هو نسخة نموذجيّة عنه، لم يحترم ضعفهم، لم يتذكّر ضعفه، وعدم استطاعته الهرب مع أخته ليلى إلى أيّ مكان بعيد عن سطوة العائلة، انتظر أن تصبح رماداً، بعدها صرخ صرخة مكتومة، ورحل عن العنابيّة الّتي يريد العودة ليُدفن فيها. كان بلبل يريد سؤاله ما دمت قد تركت كلّ شيء وراءك، لأنّ تلك الوجوه القاسية لا تعرف الرحمة، لماذا تريد أن تُدفن في أرضهم الملعونة؟

ليست المرة الأولى الّتي تخيّل فيها نفسه واقفاً أمام أبيه يخاطبه، يعترف له بأنّه مخصيّ ورجل بربع حلم لا يكفي لفعل أيّ شيء مؤثّر، ويكمل خطابه قائلاً لأبيه: أنت مثلي، لكنّك تغلّف وهمك بكلام كبير عن تحرير فلسطين الّتي أضاعها جيلك، وعن العائلة المحترمة الّتي تضمّ أولاداً مهذّبين ناجحين اجتماعيّاً، يعملون في مهن محترمة، أنت ككلّ الفقراء تريد لأولادك أن يصبحوا أطبّاء أو مهندسين ناجحين، وفرادتك هي وهم كبير دفعنا نحن أبناءك ثمنه.



حين قرّر بلبل دراسة الفلسفة شعر بأنّه خذل أباه الّذي كان طوال عمره يتحدّث بأسماء فلاسفة عظماء غيّروا البشريّة، لكنّه أراد لأبنائه مهناً تقيهم الحاجة، يشعر بلبل بنفسه أكثر عجزاً من أن يغيّر أيّ شيء. أراد فهم العالم، حاول أن يكون طالباً متميّزاً، لكنّ كلّ شيء كان ضدّ أحلامه، أساتذته يكرهون التفكير ويبيعون أسئلة الامتحان والعلامات، كلّ ما هو ضدّ الفلسفة موجود بكثرة في قسم الفلسفة، يكرهون النقاش والسياسة والتفكير والبحث، ويرشدون الطلاب إلى مكاتب تبيع ملخّصات تجاريّة للمحاضرات ويقبضون عمولة من هذه المكاتب، والأساتذة الّذين حاولوا إعادة فرض الفلسفة كمحرّض على التفكير، إمّا فُصلوا أو اعتكفوا في منازلهم يائسين. يكتب الطلّاب المخبرون تقارير يتّهمونهم فيها بالمروق والتحريض على الإلحاد وشتم الحزب والقوميّة العربيّة. التفكير جريمة حقيقيّة تستوجب المساءلة.

فقد بلبل حماسته، اشترى ملخّصات تجاريّة، ونفّذ تعليمات الأساتذة الفخورين بفكر القائد وحكمته، لم يجرؤ على الاعتراف للميا بجبنه وعدم قدرته على الاعتراض على أيّ شيء. حين يكون معها تلبسه صورة قديمة لم يبقَ منها سوى بقايا حلم، وطموح قديم مات الآن. أصبح واحداً من قطيع يريد الشهادة الجامعيّة من أجل الوظيفة لا أكثر. وهو الآن موظف في مؤسّسة الخزن والتبريد، يسجّل كمّيات البندورة والبصل المعدّة للتخزين، وفي نهاية الموسم يسجّل حجم التلف. عمل تافه لا يحتاج إلى فلسفة. لم تعد تعنيه الأفكار الجديدة، ويوماً بعد آخر تحوّل إلى موظف نموذجي، يخاف من أيّ شيء. وأكثر ما يخيفه الذهاب إلى التهلكة حين يوافق لميا وهي تتحدّث عن التغيير والثورة كضرورة، كانت تقول بصوت عالٍ إنّ المجتمع وصل إلى آخر مراحل الخنوع، ولا حلّ إلّا بثورة تقتلع التخلّف والديكتاتوريّة


مكتبة الفكر الجديد

من جذورهما، تحاسب الجلّادين والقتلة الّذين استباحوا البلاد من شرقها إلى غربها، يوافقها الأب بحماسة، وبلبل ينضمّ إلى جوقة الموافقين، لكن في أعماقه يشعر بقلبه بارداً كحبّة سفرجل عفنة. كم يؤلمه الآن نفاقه في الكثير من المواقف إرضاءً للميا، وحفاظاً على امتياز صداقتها، يكفيه رضاها، نظرتها الّتي ودّعته بها صباح اليوم كافية بالنسبة له، ليحمل جثّة أبيه على ظهره، يقطع بها الحواجز والعواصف والبراري القاحلة.

كانوا وحدهم على الطريق. اختفت السيّارات فجأة، هبط الليل والطريق مرعب، قلب بلبل موحش، وجه فاطمة قلق، وحسين غارق في حيرته، صمت ثقيل يحيط بهم، يسمعون صوت العاصفة، لم يعد أحد منهم يكترث بأوضاع الجثّة، لم يعد يعنيهم وقوعها عن الكرسيّ، اللون الأزرق غطى الصدر وكاد يصل إلى الرقبة، لم ينظروا إليها كي لا يعرفوا بانتفاخها. لم يتحدّث حسين عن موعد للوصول، علقوا في فخّ المجهول، التقدّم وإكمال طريقهم أفضل من عودتهم، قطعوا أكثر من مئتي كيلومتر، بدأوا إقناع أنفسهم بقطعهم أكثر من نصف المسافة. من بعيد تراءت لهم أضواء الحاجز الكشّافة، تمهّلوا، وحين وصلوا كان الجنود ينظرون إليهم باستغراب، كانت ملابس الجنود مختلفة، لا تشبه في شيء ملابس جنود الحواجز الأخرى، هؤلاء الجنود فقراء أكثر ممّا يجب، كأنّهم مقطوعون في هذه النقطة من العالم. جنود جيش وليسوا مخابرات أو كتائب خاصّة، وُضعوا في الخطوط الأماميّة ليستقبلوا الموت. فتح جندي لم يتجاوز عمره عشرين سنة الباب، تفحّص الجثّة باستغراب، نظر إلى هويّاتهم، ابتسم وقال إنّه من قرية قريبة من العنابيّة ويعرف اسم العائلة. تنفّسوا الصعداء وابتسموا، ترحّم على الميت ومدّ رأسه إلى داخل السيّارة، أخبرهم أنّ على حاجز الجيش الحرّ المقبل حمادة ابن عمّه، قد يؤمّن لهم مبيتاً حتى



الصباح، لا يمكنهم متابعة السفر في هذا الليل، رفع يده بالتحيّة وسمح لهم بالعبور.

لم تكن المسافة بعيدة أكثر من خمسة كيلومترات. وصلوا إلى أوّل حاجز للجيش الحرّ، سألوا عن حمادة، أضافوا اسم قريته، أتى حمادة وتفحّص وجوههم باستغراب، عرّفوه بأنفسهم، شرحوا له مهمّتهم، سألهم إن كانوا حقاً يعرفون معنى السفر في مثل هذا الوقت وعلى هذا الطريق. كانت رغبته في مساعدتهم صادقة، عرض عليهم المبيت في أحد بيوت القرية القريبة، ومتابعة سفرهم فجراً، أكّدوا له ضرورة وصولهم قبل الفجر، وضع الجثّة لا يحتمل التأجيل، يجب دفنها في أسرع وقت وإلّا فستتفسّخ. وجوههم أوحت له بأنّهم جائعون، فعرض عليهم مشاركته العشاء، طلب حسين منه مساعدتهم وكتابة رسالة توصية للحواجز التالية، يشهد فيها بمعرفتهم وتسهيل مرورهم. ضحك حمادة وأخبرهم بانتهاء سلطته بعد خمسة أمتار. كلّ كتيبة لها نظام خاصّ، وستكون الرسالة كارثة إذا وقعت في أيدي كتيبة معادية، شعروا لحظتها بدخولهم إلى أرض المجهول. وافق حسين على شرب الشاي والتوقف قليلاً، في النهاية لن يفيدهم الوصول في منتصف الليل، لا يمكن إيقاظ الأعمام وأبنائهم لدفن ميتهم في منتصف الليل، طلبت فاطمة من حمادة بعض الكحول لمسح الجثّة المنتفخة.

شربوا شاياً ساخناً، زوّدهم حمادة بقارورة كحول صغيرة وبعض المعلّبات. شعر بخجلهم من طلب أيّ شيء من مقاتلين تدلّ هيئتهم على فقرهم، ودّعهم وطلب منهم الاحتراس من كتائب المتشدّدين، أوصى فاطمة بتغطية شعرها جيّداً، احتضنه حسين كأخ صغير وتمنّى له النصر، كان وجه حمادة رقيقاً ونحيفاً، أخبرهم بانشقاقه منذ سنة ونصف عن الجيش، وانضمامه إلى هذه الكتيبة الّتي لا تملك ممولاً،



وقال إنّ ابن عمّه الواقف على الحاجز السابق لم يرض بالانشقاق، يريد البقاء مع جيش النظام، ولن يكون انشقاقه سهلاً حتى لو أراد ذلك الآن، فالقنّاص يرصد كلّ الطريق. وأكمل حمادة أنّ ابن عمه لم يزر أهله منذ ثلاث سنوات. قال إنّ الحاجزين يخوضان معارك وهميّة في ما بينهما، يريدون الحفاظ على سلامتهم، إنّهم منسيّون من قبل الجميع. شعر برغبته في الحديث حتّى الصباح، مردّداً أنّ الحرب عبث لا نهاية له، منذ زمن بعيد لم ير أحداً من أبناء منطقته ليشكو لهم وحدته. طلب منهم، حين يمرّون بقريته، أن يسألوا عن أبيه الّذي يعرفه عمّهم جيّداً، طلب منهم أن يطمئنوه أنّه بخير، وأضاف أنّه يحدّثه على الهاتف لكن ما زال للرسائل الشفهيّة سحرها في تلك المنطقة.

بعد مغادرتهم شعروا بخطئهم، كانوا ثلاثتهم يفكّرون بشيء واحد لكنهم لا يجرؤون على قوله، لماذا لم يطلبوا مساعدة حمادة في دفن الجثّة في مقبرة هذه القرية، وبعد نهاية الحرب يعودون لأخذ بقاياها، لكنّ شعور الطمأنينة الّذي رافقهم في الساعات الثلاث الأخيرة جعلهم واثقين باجتيازهم الأسوأ، أخيراً وصلوا إلى المناطق المحرّرة، لم تعد هويّاتهم مشكلة، لن ينظر أحد إليهم باحتقار وتوجّس لانتمائهم إلى العنابيّة أو ولادتهم في بلدة «س». تذكّر بلبل كلمة أبيه الأثيرة بأنّ أبناء الثورة في كلّ مكان، تحدّثوا بإعجاب وتعاطف عن حمادة وابن عمّه، كأنّهم يطردون أيّ إحساس سيّئ قد يتسرّب إلى أنفسهم في هذا الجوّ العاصف. وحدهم على الطريق تتجاوزهم سيّارات حديثة رباعيّة الدفع، مسرعة تحمل مقاتلين، توقّفت قربهم إحداها وأشار ركابها إلى حسين بإطفاء الأضواء، لم يردّوا على رجائه السماح له بالسير خلفهم، تركوهم بعد مئات الأمتار وانعطفت السيّارة في مفرق ترابي. بدت السيّارة بدون أضواء كتابوت كبير



يتقاسمونه هم الأربعة، أكثرهم طمأنينة كان الجثّة الّتي لا تعرف الخوف والقلق، تنتفخ بهدوء، تتلوّن باللون الأزرق، لا يعنيها أنّها قد تنفجر بين لحظة وأخرى، ستتلاشى برضى، غير مكترثة بالحرب ولا المقاتلين ولا الحواجز.

فكّر بلبل بأمّه، بالتأكيد لا تنتظر جثمان أبيه ليُدفن قربها، لم تترك مسافة كافية ليُدفن قرب قبرها أصلاً. لقد احتملت في حياتها الكثير من غضبه غير المبرّر، منظرهما في حديقة المنزل ينسّقان الزهور ووئامهما كذبة اضطرّت أمّه إلى عيشها طوال سنوات زواجهما الأربعين. حين تغضب، كانت تندب حظّها بكلمات سريعة. يفهم منها مأساة عيشها كخادمة لرجل ترك أرضه وأهله ليخترع تاريخاً وهمياً. تشتاق إلى العنابيّة وحقولها، لم يعنها كلّ ما فعله زوجها، لا تريد أن تصبح امرأة متمدّنة، تعشق حروف لهجتها الريفيّة القويّة، تصمت حين يبدأ الأب برواية تاريخ عائلته لزوّاره، كانت تعتقد أنّه يؤلّف ولا يكذب، لم تعد تصحّح له الأسماء وقراباتها. الشخصيّة الحقيقيّة الوحيدة هي أخته ليلى الّتي أحرقت نفسها، لم يأت على ذكرها مرّة واحدة في حياته. كانت رفيقة أمّ بلبل الحميمة، تصفها بالفتاة الرائعة، قلبها الطيّب وإيثارها، صوتها الرائع حين تغنّي لرفيقاتها وهنّ يقطفن الباmياء واليقطين وحبّات البندورة في مساءات الصيف العليلة. كانت ليلى تحفظ كلّ الأغاني، إحساسها بالحياة جعلها صديقة حميمة لكلّ بنات جيلها، تجمعهنّ في منزل أبيها وتعلّمهنّ كيفيّة الاعتناء بأجسادهنّ. عاشت خيبة مبكّرة حين تعلّقت بابن عمّها المقدّم جميل، الّذي تركها وتزوّج فتاة غبيّة، بيضاء، أهلها أقوياء، ويملكون الكثير من الأراضي. قالت عمّة بلبل لصديقاتها: لقد باعها الحبيب، لكن يوم إعدامه شقّت ثوبها من منتصفه ورثته كما ترثي امرأة زوجها. لم تحتمل ثقل الذكريات



القليلة، تقدّمت من التابوت ودفعت الجنود الّذين يحيطون به، ولا يسمحون لأحد بالاقتراب من الخائن، دقّت بيديها على التابوت تريد إيقاظه، كما كانت تفعل حين تختلس لحظات قليلة من وقتها وتدخل غرفته، تهزّه من صدره، تمسح وجهه بيدها الرقيقة، وتنظر إليه بحرارة لا يستطيع مقاومتها. عيناها الضاحكتان، رائحة النظافة الّتي تفوح منها، وأناقتها الغريبة في وسط فلّاحي يجعلها تبدو امرأة من زمان ومكان مختلفين. ليست عاراً كما هنّ نساء تلك المنطقة.

رثاؤها العلني للمقدّم جميل كان فضيحة حقيقيّة للعائلة. ما فعلته ليلى أكثر بكثير ممّا تستطيع بنات أيّ عائلة فعله. كانت نظرات الرجال معلقة بها، أبوها لم يستطع إخفاء غضبه المكتوم، أخذتها نساء العائلة إلى المنزل، أغلقن الباب عليها بالمفتاح، وعدن إلى العزاء كأنّ شيئاً لم يكن. انتظر الجميع قرار أبيها وإخوتها الثلاثة، أبوها صمت شهراً ثمّ عاد كلّ شيء إلى طبيعته، المقدّم جميل يستحقّ أن تشقّ بنات العائلة ثيابهنّ من أجله، كان أمل العائلة الّتي تذوّقت القوّة للمرّة الأولى. بعد ستة أشهر من هذه الحادثة، أبلغها أبوها بموعد قراءة فاتحتها على حمدان وموعد عرسها بعد شهر، وطلب منها مرافقة النساء إلى حلب لتجهيزها. لم تصمت، دخلت إلى غرفة أبيها وقالت له بوضوح إنّها لن تتزوّج حمدان، ثمّ طلبت الحديث مع أخيها عبد اللطيف وأخبرته بضرورة تدخّله، أضافت أنّها لن تكون بقرة في منزل رجل لا تحبّه، لن تعيش كما عاشت أمّها، لا تعرف شكل الحياة الّتي تريدها لكنّ من المؤكّد أنّها تعرف شكل الحياة الّتي لا تريدها، تعرف أنّها وحيدة. كانت واثقة من أنّ أخاها عبد اللطيف لن يتركها لأنياب العائلة تنهشها، تحدّثا طويلاً، خاف من حمايتها ومؤازرتها، ستكون معركة مجّانيّة خاصّة بعد فضيحة عزاء المقدّم جميل. كانت تريد الذهاب بعيداً عن أرض الخراب،



تكمل تعليمها، هي الوحيدة من بنات القرية الّتي أنهت الشهادة الإعداديّة بتشجيع من أخيها الّذي يرقد الآن ميتاً في سيّارة باردة على طريق بعيد، كانت تريد عيش حياة مختلفة تعتقد بأنّها جديرة بها، لم يصدّق أحد تهديدها بجعلهم يندمون، قالت لأمّ بلبل سأصبح شعلة تحرقهم وتنير درب نساء أخريات.

كانت تحبّ الكلمات الكبيرة أيضاً كأخيها عبد اللطيف، تركّب جملاً غريبة وغير مألوفة، تستطيع الإنشاد لساعات طويلة أبيات عتابا رقيقة من تأليفها، كتلة أحاسيس لا تنضب، لم يصدّق أحد مشهدها ليلة عرسها، احتفلت بجسدها، اكتفت برفيقاتها ومن بينهنّ أمّ بلبل، لم تسمح لأيّ امرأة من أهل العريس أو قريباتها بمساعدتها، أزالت الشعر الزائد كما تفعل بنات المدن، أمّ بلبل دلّكت جسمها بالكريمات، وارتدت فستانها الأبيض، صعدت إلى سطح المنزل، سحبت السلّم المودي إلى السطح، كانت قد أعدّت كلّ شيء قبل يوم، زجاجة الكاز وأعواد الثقاب، أشرفت على المحتفلين في باحة المنزل، الاحتفال في ذروته، أشعلت النار في جسدها ومضت تقهقه، انطفأت وسط ذهول الرجال وبكاء الصبايا اللواتي لم يصدّقن فقدان صديقتهنّ الحميمة إلى الأبد.

لم يتغيّر شيء بعد انتحار ليلى، بقيت الفتيات يهجرن المدرسة بعد الابتدائيّة وتقرّر العائلة مصير زواجهن، وتُذبح الفتاة الّتي تخرج عن القطيع، لكنّ الجدّ لم يعد الرجل نفسه، اعتزل الخروج من المنزل، وبعد عشر سنوات مات نادماً لأنّه لم يصدّقها، كان يحبّها، يعتبرها وريثة أمّه الّتي كانت تنشد الأشعار لزوجها، الكثيرون تناقلوا أشعارها وأغانيها العذبة، أرّخت في مواويلها للكثير من الأحداث وبقيت راوية العنابيّة المجهولة. لكنّ أحداً لم يصحّح التاريخ مرّة، بقيت كلّ الأشعار والأغاني منسوبة لشقيق أمّ جدّ بلبل، ولم يقل أحد يوماً إنّ



تلك المرأة الضئيلة الحجم أورثت إحدى حفيداتها كلّ هذا القلق بعد عشرات السنين، كما لم يقل التاريخ الشخصيّ في تلك المنطقة أيّ شيء عن ليلى سوى أنّها ماتت حرقاً لتخفي عارها.

الآن كلّ الشخوص ماتوا تقريباً، بقي عمّ وحيد وأبناء عمومة نازحون في مخيّمات تركيا، أو في السجون أو جنود في الجيش الحرّ وكتائبه المتناقضة، ولا ينتظرهم في العنابيّة سوى رجال قلائل، تعبوا من دفن الأموات خلال السنوات الأربع الماضية، لكنّ هؤلاء القلائل يكفون ليشهدوا على إتمام وصيّة عبد اللطيف الّذي تناسوه منذ زمن بعيد، رغم أنّ زيارات الأسرة القليلة للعنابيّة لم تكن كافية لإعادة الروابط الّتي تركها الأب تتفكّك بعد موت أخته ليلى.

كان عبد اللطيف يبالغ في امتداح بلدته الجديدة وسكّانها، بحثاً عن انتماء جديد. خسر لذّة الشجار والصراخ بغضب، لم تمنحه دمشق أيّ هويّة، عاش على حوافها ككلّ مهاجري الريف، خائفاً من كلّ شيء، في أيّ معاملة رسميّة يسألونه عن قرابته مع الخائن المقدّم جميل، يصيبه الذهول ويفكّر كم أنّهم، مثله، خائفون، إذا كانت سجلّاتهم بعد أربعين عاماً لم تنس جميل. وهنا، سجلّ الإنسان عبارة عن صفحة لا تُطوى بعد الموت، تورَّث الأفعال والصفات للأبناء ومن بعدهم للأحفاد، كلّ شيء مراقب وجدار حديديّ يطوّق سجلّ أيّ شخص. فكّر بلبل في هدأة الليل العاصف بسجلّ أبيه الكامل المحفوظ ككلّ المواطنين في سجلّات المخابرات، تمنّى لو استطاع الحصول على صفحته وقراءتها، ماذا يقولون عنه، كيف كان منذ أربعين عاماً حين وصل أوّل مرّة إلى تلك البلدة القريبة من دمشق، ماذا كتب في صفحته الأخيرة. فضول غريب أصاب بلبل. التفكير في هذه الأمور يشغله عن إخبارهم قصّة نيفين، والتعليق على كلمات حسين الّذي عاد غاضباً يفكّر في خلاصه الفردي، يرغب في رميهم



مع الجثّة على قارعة الطريق وهجرهم إلى الأبد، ورطته ليست أكبر من ورطتهم بالتأكيد، إنّهم لأوّل مرّة يتقاسمون المصير ذاته.

قالت فاطمة إنّ الجثّة تتفتّق، حاول بلبل تغيير الحديث كأنّ ما قالته لا يعني أحداً، لم يرَ بلبل جثّة تتفتّق في حياته، لكنّه فقد قدرته على المحافظة عليها سليمة، كما تسلّمها من المشفى قبل يومين، تمنّى الموت لفاطمة، إحساسها بواجب الاعتناء بالجثّة، يجعلها ترفع عنها الغطاء وتكتشف الكارثة الّتي يستطيع بلبل وحسين تقديرها. الأموات يتحوّلون إلى خراء، لا يمكنهم تنظيف أنفسهم من جثّة أبيهم حتى لو تحوّل إلى خراء، لا يمكنهم مسحه من حياتهم كشيء زائل، الذكريات حموضة لامتناهية تحفر في أعماقهم، وتغطي قلوبهم كنمش، كما بقي منظر احتراق ليلي كعرنوس ذرة ينهش قلب أخيها عبد اللطيف حتى آخر يوم في حياته. كرّرت فاطمة تنبيههما إلى الجثّة المفتوقة، وقد بدأ خيط قيح كريه ينسلّ من الفتق. أوقف حسين السيّارة، التفت إلى فاطمة وقال غاضباً فلتتحوّل إلى خراء، شتم أباه والعائلة، ونظر بغضب إلى بلبل الّذي تحاشى النظر إليه، خاف ألّا يحتمل ما سيقوله، في الساعات الثلاث الأخيرة كان ينظر إليه في المرآة غاضباً، لم يتوقّعوا أنّ ليلة أخرى ستمرّ عليهم في هذا المكان الفظيع، انسلّت دموع فاطمة بصمت على خدّيها، قوّة في داخل بلبل جعلته يقرّر عدم ترك حسين يتصرّف بهما كما يحلو له. سينفّذ وصيّة أبيه حتى لو حمله على ظهره، شعر براحة كبيرة لقراره، لكنّه صمت ولم يردّ على استفزاز حسين.

صور طفولتهم تحاصرهم منذ مغادرتهم دمشق، لكنّها الآن تخنق بلبل، لم تكن كلّها سيّئة، مع مرور الوقت أصبحت غريبة تلك اللحظات البريئة، لا أحد يستطيع إنقاذ الآخر، هما وجهان لعملة واحدة، حسين يمثل الوجه الشجاع والأحمق، وبلبل الوجه الآخر



الجبان والمستسلم، كلاهما خسر معركته مع الحياة. هم الثلاثة الآن عبارة عن أشخاص غرباء عن هذه الجثّة الّتي مهما خسرت، فسيظلّ لديها شيء تربحه في النهاية يجعلها تتمدّد دون اكتراث.

زاد صوت المطر الغزير في الخارج من خوفهم، قطعوا الكيلومترات العشرين، انتهى تفاؤلهم الّذي شعروا به عند مغادرتهم الحاجز الأخير، عادوا مرّة أخرى إلى المجهول، عبرتهم مجموعة سيّارات مسرعة تتخبّط في الطريق، كانت وجوه المسلحين داخلها قاسية وواضحة، ذقون طويلة، غريبة بسمرتها الداكنة، بينهم واحد أشقر، شعره مجدل ونظراته بلهاء، تمهّلوا قليلاً حين وصلوا قربهم، نظروا إليهم بفضول وتابعوا طريقهم، لم يخف حسين ضياعهم وسط هذه البراري. من بعيد تراءت لهم أضواء قليلة، قال حسين يجب التوقّف للمبيت في أقرب قرية، لم تعد أعصابه تحتمل.

اقتربوا من ضوء شحيح، ورجل يشبه الرجال الّذين عبروهم في سيّارات سريعة منذ دقائق، أشار لهم بالتوقّف بإشارة من ضوء محمول يلوّح به، توقفوا وفتح حسين النافذة، أشار إليه الرجل المسلّح بالتمهّل والسير نحو الحاجز. كانت لكنته غريبة، لم يكن سوريّاً، قال حسين إنّه شيشاني، أضاف أنّه يعرف تلك الملّة، كثيراً ما رافق راقصات روسيّات، وصلوا إلى الحاجز وانتظروا. قلوبهم تدقّ خارج أقفاصهم الصدريّة يسمعها بلبل بوضوح. هم الآن في مرمى القنّاصة مباشرة، من السهل اصطيادهم، الانتظار يفتّت ركبهم، هذه المرّة لم يعرفوا في أيّ مصيدة وقعوا، انتظروا أكثر من نصف ساعة، سيّارة أخرى تائهة في هذا الليل وقفت خلفهم، شعروا بأمان حين رأوا فيها ثلاثة شبّان مدنيّين مثلهم، رغب حسين في سؤالهم عن وجهتهم، الحديث مع الغرباء يجعل خوفهم أقلّ ويمنحهم القليل من الطمأنينة، أشعل حسين سيجارة ثالثة وفتح باب الميكروباص،



سمع صوتاً غريباً لشخص لا يراه يأمره بالعودة إلى السيّارة، بعد دقائق اقترب منهم رجل يرتدي ملابس سوداء ويضع قناعاً على وجهه، طلب هويّاتهم بلغة عربيّة غير سليمة، انتبه إلى الجثّة قبل شرحهم لخطّ رحلتهم، بادره حسين بالقول إنّهم في طريقهم لدفن أبيهم، تحدّث بجهاز لاسلكي يحمله بيده، ثمّ كشف البطانيّة عن الجثّة، كانت جثّة مختلفة، مليئة بالقروح، تنزّ قيحاً في أكثر من مكان، انتشرت رائحتها الكريهة في المكان، استوطنت أنوفهم، ثلاثة مسلحين توجّهوا نحوهم، ركبوا معهم وأمروا حسين بالتوجّه نحو مبنى الأمير الواقع على تخوم القرية الصغيرة، وصلوا وترجّلوا ودخلوا إلى المبنى الّذي يتوسّط مزرعة يحرسها جيّداً أشخاص يرتدون أقنعة.

رائحة البخور عبقت في الممرّ إلى قاعة كبيرة، وقفوا على بابها ينتظرون السماح لهم بمقابلة الأمير، الحرّاس المقنّعون لا يتحدّثون مع أحد، كأنّهم ألواح خشبيّة، سألتهم فاطمة إرشادها إلى الحمّام، وجوههم لم تتحرّك وأصابعهم على زناد البنادق الغريبة، حاول حسين استعراض معلوماته العسكريّة وقال إنّها دوشكا، نظرة واحدة من الحارس كانت كافية لإخراسه. سمعوا همهمة وراء الباب الضخم، الشيء الوحيد الّذي أسعدهم كان الدفء داخل المبنى، البذخ واضح في كلّ تفاصيل الفيلا، اقتربت الهمهمات وخرجت مجموعة رجال بدو، يشكرون الأمير ويدعون له بطول العمر.

بعد دقائق فتح لهم رجل طويل الباب، هنا مملكة الأقنعة، لا وجوه، لا تفاصيل ولا ملامح، كانت فاطمة أكثرهم خوفاً، تداركت على عجل وغطت شعرها ونصف وجهها، بدت لبلبل امرأة فقيرة، مهملة الملابس. تعب السفر كان واضحاً على وجوههم، كأنّهم قطعوا أكثر من خمسة آلاف كيلومتر لا مئتين وخمسين كيلومتراً فقط. في الأيّام العاديّة يقطعونها بساعتين ونصف. حين فتح الباب ودخلوا فوجئ



بلبل بفاطمة تركع على قدميها لتحيّة الأمير، تقلّد الممثّلات في المسلسلات التاريخيّة. سألهم الأمير الّذي كان مقنّعاً أيضاً ويرتدي ثوباً مطرّزاً يشبه الأثواب العباسيّة، عن حاجتهم. قدّروا من لهجته أنّه قد يكون أفغانيّاً أو شيشانيّاً، يتحدّث بعربيّة ثقيلة وبطيئة. دخل أحد الحرّاس وأعطاهم هويّاتهم وهمس في أذن الأمير بشيء، ثمّ خرج. قال حسين باستخفاف وبلغة عربيّة فصحى كادت تميت بلبل ضحكاً – لكنّه أمسك نفسه – ملخصاً إنّهم يحتاجون إلى السماح لهم بالمرور للحاق بدفن جثّة أبيهم قبل تفسّخها، ففوجئ حسين بسؤال الأمير إن كان يعرف أحكام دفن الميت في الشريعة الإسلاميّة. كانت لهجته قاسية تشي بانزعاجه، نظر حسين إلى بلبل لينقذه، لكنّه بقي صامتاً. قال بلبل في نفسه لن تنتهي الإهانات، وأولاد الثورة ليسوا في كلّ مكان كما كان أبوه يعتقد، هم هنا في أرض غريبة مع أناس غرباء، لا يعرفون لماذا لا يسمحون لهم بدفن جثّة أبيهم، قال حسين كلمات معروفة مستعيناً بالحكم المنشورة في الروزنامات، تحدّث عن إكرام الميت بدفنه، ففوجئوا بالأمير يخطب فيهم بصوت هادئ لكنّه غاضب: أرض الإسلام كلّها مقبرة للمسلمين والوصايا بدعة وضلال، فوافقه حسين بقوّة. شعر بلبل برغبة حسين في الخلاص من الجثّة بأيّ ثمن، عدّد الأمير أسماء الصحابة الّذين دُفنوا خارج أوطانهم، حاول بلبل التحدّث لكنّ الأمير أشار إليه بالسكوت، ثمّ فاجأ حسين بسؤاله عن عدد ركعات صلاة الميت، سألهم عن طائفتهم، شرحوا له أنّهم من العنابيّة... وحدث ما لم يكن متوقّعاً، عشرات القذائف انهمرت قرب المكان، نهض الأمير، تركهم وسط القاعة الكبيرة وخرج مسرعاً، لم يضيّعوا وقتهم، خرجوا وراءه. حسين أشار إلى بلبل بالعودة مع فاطمة إلى الميكروباص، حركة غريبة سادت المبنى، قال حسين للحرّاس إنّ الأمير سمح لهم بالمغادرة، لم يعترضوه، ما زالت القذائف تنهمر



قريباً من المبنى وإحداها أصابت المبنى، شعروا بارتجاجه، لم يكترث الحرّاس لمغادرتهم، كانت المعركة في الجهة الأخرى من الطريق، غادروا بسرعة دون إشعال أضواء السيّارة. كانت المعركة تشتدّ وتقترب، لم ينتبهوا إلى أنّ السيّارة قد تعرّضت للتفتيش الدقيق، رموا السيديات وأوراق السيّارة على أرض السيّارة، تأكدوا من أنّ الهويّات في حوزتهم، لملموا أشياءهم وابتعدوا مسرعين.

وقف حسين بعد مئات الأمتار، غاب مبنى الأمير وقريته الصغيرة عن أنظارهم، باستطاعتهم سماع أصوات الرصاص والقذائف، ابتعدوا بما فيه الكفاية للإفلات من الأمير، أخبرهما حسين بأنّه أضاع الطريق، الرقة قريبة من هنا، لكنّه غير متأكّد من أنّ المفرق الآخر يوصلهم إلى حلب، شعر بضرورة الوقوف وتمضية الساعات القليلة الباقية لبزوغ الفجر في هذا المكان، يحتاجون إلى رفيق سفر لمتابعة طريقهم، وجودهم مع جثّة في مثل هذا الوقت مثير للتساؤل، اختار مكاناً قريباً من عدّة مفارق، أطفأ محرّك الميكروباص وساد صمت ثقيل لا يقطعه سوى نباح كلاب قريبة.

الآن منتصف الليل، تمدّد حسين في كرسيّه وأغمض عينيه، فاطمة حاولت تغطية وجهها، لا أحد يريد النظر إلى الجثّة، أصبحت وباءً وفقدت بريقها، لم يعد بلبل يمانع لو اقترح حسين دفنها هنا على قارعة هذا الطريق المجهول، سمع شخير حسين بعد دقائق، ولم يبق له إلّا النظر إلى الليل، حاول فتح الباب واستنشاق الهواء النقيّ، البرد الشديد جمّد أطرافه، عاد إلى السيّارة، وفي اللحظة الأولى قدّر أنّهم تآلفوا مع العفن، رؤوسهم الثقيلة نتيجة طبيعيّة للرائحة الّتي لفحتهم، تنفّسوا موت أبيهم كما لم يتنفّس أحد موت حبيب، تغلغلت في جلودهم وسرت في دمهم، ما بقي منه حقيقته الوحيدة، بعض عفن وقروح، اكتفى من الأحلام، في رحلته الأخيرة



ودّعته العواصف كما يليق بمحارب واهم، بقي حتى اللحظة الأخيرة يفخر بكلّ هزائمه، لم يعرف طعم النصر لحظة، لكنّه كان منتشياً به، ينتظره كقدر لا بدّ أنّه قادم، كما هو الآن، مرميّاً على كرسيّ طويل في ميكرو باص بارد دون حركة.

استبدّ الضيق بهم جميعاً، لم يعد أحدهم يحتمل حتى النظر في عيون الآخر، تمدّدت فاطمة على الأرض، وجهها يشبه الفقمة، حاولت استعادة طفولتهم، لكنّ صوت حسين قطع أفكارها المشتّتة، سأل بلبل «وبعدين؟» حقّاً لا يملك بلبل أيّ جواب عمّا سيحدث بعدها، أخبره بأنّه لا يعرف، صوت المطر الغزير زاد من إحساسهم بالوحشة. قال حسين: يجب وضع الجثّة على المقعد الخلفي، لم يجرؤ على القول إنّ رائحتها الّتي تصله تدوخه، أيقظوا فاطمة الّتي أغمضت عينيها بعد تجاهل كلماتها القليلة، رتّبت مكاناً في المقعد الخلفي، وحين بدأوا بحملها فوجئوا بثقلها وكمّية الثقوب الّتي تنزّ قيحاً أصفر، فتحوا الباب لثوانٍ، تداركوا قطيع كلاب كان يسرع نحوهم، العواء ملأ الفضاء، أغلقوا الأبواب بسرعة، نجوا من شراستها، لم يستطيعوا تصديق ما يحدث، الكلاب تقفز على الميكروباص تريد اقتحامه من كلّ الجهات، تكشّر عن أنيابها هائجة، شعر بلبل بأنّها لن تتركهم بسلام، اقترح على حسين ترك المكان والمغادرة إلى الأمام، قد يجدون مكاناً مأهولاً يحتمون به، لم يردّ حسين، بقي ينظر بافتتان إلى الكلب الّذي كان يحاول خدش الزجاج الأمامي للميكروباص، ضحك حسين وبدأ يلاعب الكلب الّذي يزداد شراسة، بلبل أصابه إحباط فظيع، فكّر لو استطاعت الكلاب الوصول إلى الجثّة لمزقتها، بدأ يشعر برعب حقيقي من صورة أبيه، لقد أصبح جيفة تثير شهيّة الكلاب. إنها أكثر درجات انحطاط الجسد، أكثر من نصف ساعة والكلاب تزداد سعاراً، تأتي كلاب جديدة، حاصرهم قطيع كامل من الكلاب.


مكتبة الفكر الجديد

بدأ الخوف يتسرّب إلى قلب حسين حين بدأت ثلاثة كلاب بضرب بلور السيّارة الأمامي بشراسة، شغل المحرّك، الكلاب لم تتزحزح، سار الميكروباص وفاطمة تحاول وضع غطاء على البلور الخلفي للميكروباص، تحاول منع الرؤية، قال لها بلبل إنّ ما يجذب الكلاب هو الرائحة الّتي تسرّبت وعلقت في خياشيمها حين فتحنا الباب، كيف وإلى أين سيهربون؟ اختاروا المفرق الّذي قدّر حسين أنّه يقودهم إلى طريق حلب، تاركاً مفرق مدينة الرقّة وراءهم، قال بلبل لحسين: لماذا لا نذهب إلى الرقة، ومنها إلى تل أبيض وتركيا، ثمّ نكمل طريقنا في الأراضي التركيّة وندخل من معبر السلامة القريب من العنابيّة؟ سخر من ذكائه متسائلاً: كيف سندخل الجثّة بدون جواز سفر؟ ما زالت الكلاب تلاحقهم، وهم يسيرون في طريق ضيّق دون أيّ إشارة، شعروا بأنّهم في طريقهم إلى الضياع. تأفّف حسين من تدخل بلبل، ورغبته في العودة إلى المفرق حيث كانوا واقفين، الكلاب ستصاب بالملل وتتركهم. رأى بلبل وجه حسين في المرآة غاضباً، لا وقت للمغامرات، الخطأ قد يكلفهم حياتهم، المطر لم يتوقف، وصلوا إلى مفرق طرق زراعيّة لقرية بعيدة غارقة في الظلام، من الواضح أنّهم ضاعوا، الكلاب ابتعدت عنهم وصوت نباحها البعيد لم يشعرهم بالأمان، شعروا بقلق شديد في هذا المكان، هم الآن في العراء.

حسم حسين خياره النهائي في التصرّف بطريقة فرديّة، كأنّه أصيب بالصمم، رجته فاطمة أكل قطعة خبز بقيت لديهم، لم يجبها، غرق في كرسيّه، حدّق في المطر الّذي يتوقف لحظات ويشتدّ لحظات أخرى، الوصول إلى تلك القرية يكلفهم عشر دقائق ووجودهم في مكان مأهول أفضل من هذا العراء، ستصل إليهم الكلاب لا محالة، الكلاب تعرف طريقها إلى فريستها ولا تخذلها حاسّة شمّها.



تذكّر بلبل، في الأشهر الأخيرة هاجرت الكلاب الشاردة من البلدات المحيطة بدمشق، لتجول في قلب المدينة باسترخاء. هي لا تشبه الكلاب على أيّ حال، عيونها ذئبيّة وفكّها مرتخٍ، متعبة ولا تكتفي بالعظام، التهمت الكثير من الجثث الّتي لم يستطع أحد دفنها خاصّة بعد المعارك الكبرى، لم يكن خيالاً بل حقيقة أكّدها الكثيرون، شاهد بلبل الكثير منها حين كان يخرج ليلاً لغرض ما، أكلة لحوم بشر تجول بين البشر وفي الطرقات بكلّ هدوء، أصبح اللقاء آخر الليل مع كلب شيئاً مرعباً، قد يودي بحياة الشخص، حين تتمكّن الشراسة والجوع من الكلاب تفقدها لطفها فلا تعود تكتفي بالنباح، لقد تذوّقت طعم لحم البشر مرّة ولن تستطيع نسيانه.

لم يستمع حسين إلى بلبل، أطفأ المحرّك وبدأ يدخّن، فكّر بالدوّامة الّتي دخلوا فيها، هذه الدروب المجهولة ستودي بهم إلى الضياع، لم يعد يعرف الجهات. فجأة قال حسين لبلبل إنّه ورّطهم ويجب عليه تحمّل المسؤوليّة، وإذا لم يصلوا إلى العنابيّة حتى الظهر، فسيتركهما مع الجثّة على قارعة الطريق. أضاف أنّ أباه لا يستحقّ كلّ هذا العناء، طرده من المنزل ولم يحاول السؤال عنه. كانت لهجته هادئة وهو ينظر إلى بلبل بغضب في المرآة، فاجأ بلبل حسين قائلاً: تستطيع تركنا الآن، فالتفت إليه حسين وخلال ثوانٍ كان يفتح الباب الجانبي للميكروباص، ويشحط الجثّة، نهر فاطمة الّتي لم تستطع فعل شيء سوى البكاء، المتاهة ليست المكان المناسب لتصفية الحسابات، لكنّ حسين كان مصمّماً على رمي الجثّة في العراء. نزل بلبل من الميكروباص، خلال دقائق كان المطر يغرقه، لكنّه بقي محافظاً على رباطة جأش، قوّة غريبة نبتت في قلبه، شعر بقدرته على القتل، لأوّل مرة يشعر بأنّ القتل قد يكون حلّاً لتصفية حسابات عالقة، فكّر خلال لحظات أنّ أحدهما يجب أن يختفي كي يشعر الآخر



بحياة آمنة. غضب حسين منحه قوّة كبيرة، لم يستسلم لرجاء فاطمة الّتي انكبّت تقبل قدميهما، رجتهما أن يهدآ، قالت كلاماً عن العائلة وأبيها وعن أخويها وفقرهما، استنجدت بشهامتهما واختنق صوتها. شتمها حسين ووصفها بالقحبة، رفسها وأخرجها من السيّارة، وقعت على الأرض، منظرها وهي تغرق في الطين باكية ولا تستطيع النهوض، أثار غضب بلبل الشديد، اندفع نحو حسين، أمسكه من ياقة جاكيته وجرّه خارج الميكروباص، وقعت الجثّة الّتي كان يحاول إخراجها، استعصىّ وجه الأب في الحيّز الضيّق بين المقاعد، أنزل بلبل حسين من السيّارة ولكمه بقوّة، لم يستطع منع نفسه من البكاء بصوت عالٍ، نهض حسين عن الأرض وهجم على بلبل كوحش، كان قويّ البنية وما زالت عضلاته مفتولة، تعاركا لدقائق قبل أن يثبّته على الأرض، لطمه بيده القويّة عدّة لطمات كانت كافية ليستسلم بلبل لضربات أخيه، ترك لنفسه حرّية التمدّد على الأرض الطينيّة، راقب السماء المكفهرّة وفكّر بموته أو اختفائه، ليستطيع حسين العيش بعيداً عن طفولته، و اختراع طفولة يشتهيها. لو سافر بلبل إلى مكان غريب وبدأ حياة جديدة، لتخلّص للأبد من كلّ أحماله، المطر والطين أفقداه الإحساس بجسده، لعق دمه الّذي سال على وجهه، سمع صوت بكاء حسين عالياً، كانوا هم الثلاثة يبكون في هذا العراء، حاول بلبل النهوض لكنّه لم يستطع، استجمع كلّ قواه، ساعدته فاطمة على النهوض وقادته إلى السيّارة من جديد، عاد حسين إلى السيّارة صامتاً، شغّل المحرّك وسار نحو القرية القريبة الغارقة في ظلام تامّ.

توقف المطر وأصبحت السماء صافية، حين وصلوا إلى القرية تأكدوا من أنّها مكان مهجور ومنكوب، منازل مدمّرة بالكامل، واضح أنّها قُصفَت بالطيران أو الصواريخ، ما بقي من أثاث تناثر حطامه في الطرقات الطينيّة، كلّ شيء ركام، سارت السيّارة ببطء، استنجدوا



بأيّ أحد ينتبه إليهم، كانت قرية صغيرة على كلّ حال، عدد بيوتها لا يتجاوز الأربعين، يخترقها شارع ضيق ومُعبَّد، وعلى جانبيه تصطفّ البيوت، طرق أخرى توصل إلى ساحة صغيرة. توقف حسين في الساحة، ترك محرّك السيّارة دائراً، أطلق زمّور السيّارة عدّة مرّات ليلفت انتباه أيّ أحد، لا شيء إلّا الوحشة. ضمّدت فاطمة جروح بلبل بكنزتها، ما زالت تبكي بصمت، جال حسين مستطلعاً المكان، لا يريد البقاء معهما في المكان نفسه، لقد انتهى القليل الباقي بينهم.

كانوا يعتقدون بامتلاكهم وقتاً طويلاً، سيحاولون فيه نفض ذاكرتهم من جديد، الحديث سيكون مناسباً، لم يستطع أبوهم جمعهم في حياته إلّا في مناسبات عابرة، كان يحكمها الواجب أكثر من رغبتهم في وجودهم في المكان نفسه. لم يستطع الأب الاستماع إلى جدّية الشرخ الّذي ينمو بينهم يوماً بعد آخر، والسفر مع جثّته لم يمنحهم الوقت الكافي ولا الفرصة المناسبة ليقولوا كلّ ما يضمرونه في قلوبهم من أشياء قد تكون صغيرة، لكن بعد هذه السنوات من الفراق أصبحت كبيرة، فوجئوا جميعاً بأنّهم منذ أربع سنوات لم يجتمعوا حتى في المناسبات، لكنّ المناخ العامّ في البلاد منحهم جميعاً العذر، لم تعد العائلات تغامر باجتياز الحواجز من أجل اجتماع عائلي، لكنّ السنوات الّتي سبقت الثورة لم تكن أفضل، لا يعرف أحدهم سرّ رغبتهم جميعاً في نبذ العائلة.

بلبل يعتقد في قرارة نفسه بمسؤوليّة حسين عن الشرخ الأوّل في العائلة، تلك الليلة الشهيرة الّتي حمل فيها حقيبته، وخرج هارباً من المنزل، كانت ضربة قاضية لاستقرار العائلة، كان من الممكن حدوث ما هو أكبر، لكن، في الوقت نفسه، كان ذلك الخروج مرضياً لبلبل الّذي شعر باستعادة مكانته في المنزل. انتهى ذلك الضجيج الّذي يثيره حسين في حضوره، وغير المحتمل بالنسبة لشخص رقيق



وضعيف كبلبل، كان يريد إخبار حسين كلّ ما كتمه في أعماقه لسنوات طويلة، لكنّ ساعات رحلتهم لم تمنحهم الفرصة للحديث مرّة أخرى، في ذلك اليوم البعيد فوجئ بلبل أيضاً بأنّ حسين منذ تلك الليلة لم يعد للعيش في منزل العائلة. كان عدم اهتمام أو سؤال أيّ أحد عن حسين مفاجأة كبيرة لبلبل، حتى هو لم يبال، كان يعتقد بأنّها مشكلة عابرة وسيعود حسين إلى المنزل بعد أيّام قليلة، لكنّه لم يفعل. حين كان حسين في السجن، تابع أصدقاؤه قضيّته وتوسّطوا لإخراجه بكفالة، لم يكترث أحد من العائلة بأمره، لكن رغم كلّ تلك السنوات، بقيت تلك الليلة في أذهان الجميع، ولم يستطع أحد نسيانها.

الوقت الطويل الّذي قضوه قرب الجثّة كان متوتّراً، في الساعات الأولى كانوا متفائلين، وجدوا هدفاً واحداً يوحّدهم للدفاع عنه، بعد الليلة الأولى أصبح الحفاظ على ذاتهم هدفاً لا يمكن تجاهله، والجثّة لم تكن أكثر من ذريعة، في قرارة أنفسهم، فكّر الثلاثة بأنّهم لن يضحّوا من أجل أحد، الحفاظ على حياتهم رغم بؤسها كان هدفاً يضمره الجميع.

دخل حسين طريقاً فرعيّاً وغادر الساحة، عاد بعد قليل، ركب السيّارة وسار بهم إلى منزل فيه ضوء كاز، وبابه مفتوح، واضح أنّه تحدّث مع أصحابه، تركهما ونزل من السيّارة، دخل إلى الغرفة الوحيدة الباقية الّتي لم تدمَّر، باقي الغرف كانت مدمّرة بالكامل، خرجت امرأة عجوز من الغرفة، وأشارت لهم بالدخول، فكّر بلبل في البقاء مكانه، لكنّ فاطمة قادته من يده وقبّلت المرأة العجوز شاكرة كرمها في استضافتهم.

بقيت جثّة الأب وحيدة، فكّر بلبل، إذا وصلت الكلاب إليها فستنهشها وهو لن يحرّك ساكناً، سيدّعي أنّ ما حدث دون علمه،



وأنّ الحفاظ عليها ليس مسؤوليّته وحده، هما أيضاً ابناه ومن واجبهما حراسته. الغرفة كانت دافئة، الرجل والمرأة العجوزان تجاوزا الثمانين، واضح أنّهما لا يسمعان جيّداً، ولا يدققان في كلّ ما يقولانه. تصرّفت فاطمة كصاحبة منزل، صنعت شاياً وسخّنت مياهاً في قدر، مسحت جروح أخويها الّتي توقفت عن النزف. رأى بلبل عين حسين المتورّمة، وفي المرآة الكبيرة المعلقة على الحائط رأى بلبل وجهه مليئاً بالكدمات، شعروا باسترخاء ودفء، فهموا من المرأة العجوز أنّ القرية قُصفت أكثر من عشر مرّات بالطائرات والصواريخ، وأهلها هجروها إلى مكان آخر، لم يبق هنا سوى عائلتين، وهذين الكائنين اللذين ينتظران الموت منذ سنوات طويلة.

بجدّية، سأل بلبل المرأة العجوز عن إمكانيّة دفن أبيهم في المقبرة، استغربت سؤاله، وقالت إنّ في المقبرة أكثر من ثلاثمئة قبر جديد خلال هذه السنة فقط، الجيش الحرّ دخل القرية في السنة الماضية، لم يستطع الحفاظ عليها أكثر من سنة، وثلاثة من أحفادها يقاتلون معهم، بعد المعركة الكبيرة بقيت أكثر من مئة جثّة مرميّة في الطرقات والحقول قبل أن يدفنها من بقي من أهل القرية قبل رحيلهم إلى المخيّمات التركيّة.

حين ذكرت المرأة العجوز اسم البلدة، عرفوا أنّهم ساروا في الاتجاه المعاكس واستداروا حول أنفسهم. كان العجوزان سعيدين بقدومهم، منذ زمن بعيد لم يتحدّثا إلى أيّ شخص، كانا يرويان سيرة الموت والمعارك والقصف بمرح، يصمتان ويعيدان سؤالهم عن العنابيّة. يروي الرجل قصصاً بكلمات قديمة ولهجة ريفيّة أصيلة، عن رحلته إلى شمال حلب، يذكر شراءه ذات يوم تبناً من هناك، لم يعد يذكر اسم الشخص الّذي باعه التبن وصمّم على استضافته تلك الليلة لتأخّر الوقت. كان يتحدّث عن شيء حدث منذ ستّين سنة كأنّه



حدث البارحة، قضى وقتاً يحاول تذكّر موقع البيت ليساعدهم على معرفة اسم الشخص الّذي باعه التبن. لم يكونوا في وارد مشاركته الذكريات، استرخوا غير مبالين باسم الرجل الّذي باع مضيفهم التبن. تمدّد حسين على طرّاحة وغفا، غطته المرأة العجوز ببطانيّة قديمة، وغرق في النوم متكوّراً على نفسه، أرشدت المرأة فاطمة إلى مكان وجود المؤن القليلة لتعدّ طعاماً لهم، شعر بلبل بالدفء واسترخى، لم يبق لبزوغ الفجر سوى ساعتين قضاهما في نوم قصير ومتقطع، ومضيفهم يحاول تذكّر اسم الشخص الّذي باعه التبن.

يجب حسم الموضوع، إذا دفنوا أباهم هنا فسينتهي كلّ شيء. فاطمة استعادت قوّتها، أخذت قدراً مليئة بالماء الساخن، مسحت جسد أبيها محاولة تنظيفه، من المستحيل السيطرة على الروائح القاتلة، تزداد الشقوق الّتي تنزّ ما بقي من سوائل على شكل قيح كريه، يشبه خراء رجل مصاب بالإسهال.

في الساعات القليلة الّتي قضوها في الغرفة الدافئة، استرخى بلبل، ودون مقدّمات أخبر فاطمة بزواج أبيها بنيفين، صُدم بردّ فعلها غير المبالي، كأنّه لم يقل شيئاً، ضحكت وتابعت شرب الشاي، حسين سمع ما قاله بلبل لكنه لم يعلق أيضاً، فكّر بصحّة الخبر الّذي نقله له صديق طفولته حسّان الّذي استطاع الخروج من البلدة المحاصرة. الأمر لم يكن نزوة، هي القصّة الكاملة لحبّ قديم نكأت العزلة والوحدة جراحه مرّة أخرى.

يوم دخل عبد اللطيف مع لميا إلى منزل صديقه القديم نجيب، الّذي تحوّل إلى مشفى ميداني، فوجئ بنيفين تربط عصبة قماش على رأسها، تبدو كممرّضة محترفة، تقصّ قطع الشاش وتعقّمها، تساعد ابنها الكبير الطبيب هيثم الّذي يحاول إنقاذ الجرحى المرميّين في غرف البيت الواسع، يساعده ثلاثة أطبّاء من أبناء البلدة الّتي هبّت



في تلك الليلة لتقديم المساعدة. الذهول الّذي أصاب الجميع وهم يشيّعون أحبّتهم تحوّل إلى غضب عارم.

كل أهالي البلدة قد توافدوا إلى المشفى الميداني بعد منع المخابرات العيادات والمشافي الصغيرة من استقبال أيّ جريح، قدّم الجميع كلّ ما لديهم، كمّيات هائلة من الأدوية والشاش جُمعت من البيوت والصيدليّات، أجهزة طبّية نُقلت سرّاً من العيادات، جُهّزت غرفة عمليّات مرتجلة في القبو بعد إفراغه من المؤن ومن فساتين نيفين القديمة الّتي طوتها بعناية شديدة، ورتّبتها في صناديق كبيرة بعد موت زوجها نجيب العبد الله قبل عشر سنوات في حادث سير على طريق بيروت.

نيفين أتمّت الستّين من عمرها، وما زالت يانعة وجميلة، في عينيها نظرة كبرياء ازدادت حدّتها عبر سنوات زواجها الّتي قضتها في اشتباكات ومعارك لا تتوقّف مع عائلة زوجها. ابنها البكر هيثم تخرّج من كليّة الطبّ قبل أشهر قليلة من الثورة، وابنها الصغير رامي في الثانية والعشرين من عمره، تخرّج من المعهد المصرفي قبل سنة، وذهب مباشرة لخدمة العلم. لم تستطع نيفين تحمّل خسارة ابنها هيثم، بعد اعتقاله على حاجز المخابرات الجوّية الّذي كان يترصّد خروجه من البلدة، انتابتها لحظات شؤم فظيعة، لم يعرف هيثم أنّ علاجه الجرحى جريمة كبيرة بالنسبة للنظام، اعترف بكلّ هدوء بمداواته الجرحى في منزل عائلته، وبعد أسبوع واحد رنّ جرس الهاتف في منزل نيفين، كان المتحدث ضابطاً رفيعاً في المخابرات، طلب منها تسلّم جثمان ابنها من المشفى العسكري في المزّة، وأغلق السمّاعة في وجهها.

تلك الليلة لم تنم المدينة الصغيرة، انسحب عناصر الشرطة والمخابرات من البلدة، تهيّأ الشباب لحرق كلّ مباني النظام، المخفر



ومبنى البلديّة وبيوت المخبرين الّذين يعرفونهم فرداً فرداً وشعبة الحزب، أكثر من عشرين ألف رجل وامرأة وشاب وطفل تظاهروا، رفعوا قبضاتهم في الهواء غاضبين، وانتظروا على بوّابة المدينة جثامين هيثم وثلاثة من رفاقه، جميعهم قُتلوا تحت التعذيب في فرع المخابرات. ذهب فرد من كلّ عائلة للتوقيع على تسلّم جثمان ابنه، على أنّه مات في حادث أو نتيجة مرض غامض.

من بعيد تهادت السيّارة الكبيرة تحمل الجثامين الأربعة، كانت نيفين جالسة في المقعد الأمامي تنظر إلى نقطة غير مرئيّة، وجهها قاسٍ لا يمكن قراءة تعابيره، كان عبد اللطيف واقفاً وسط الحشود يراقبها، تنهمر دموعه بصمت، عيناه معلقتان مع الجميع بالجثامين الّتي حملها الشباب على أكتافهم، وطافوا بها كلّ شوارع المدينة وسط هتافات غاضبة بإسقاط النظام.

طلبت نيفين من الجميع حمل هيثم ورفاقه إلى منزلها، حملوا جثامين الثلاثة، وكيساً أسود تجمّعت فيه قطع لحم ابنها المقطعة، طلبت بكلّ برود من رفاقه الأطبّاء الثلاثة إعادة تجميع جثّته، حاولوا إقناعها بأنّ تجميع قطع رجل ميت عمل لا يمكن تخيّل عبثه، ماذا يهمّ الجثّة بعد الموت، كثيرون دفنوا ما بقي من أبنائهم، ولم يحصلوا على جثّة كاملة، بقيت مصمّمة ولم يجرؤ أحد على نقاشها، انتظرتهم قرب الباب، عمل الأطباء ساعات وهم في وضع نفسي سيّئ، لا يمكن تجميع صديق بهذه السهولة، الأصابع المقطوعة كانت المعضلة، كانت جثّة هيثم بدون أصابع، بقي الوجه وباقي الأعضاء تقريباً. مات نتيجة رصاصة في الرأس أطلقت من الخلف، قبل تقطيعه، لا يمكن تخيّل ما حدث، حُمل الجثمان في كفن، رفعت نيفين غطاء الوجه، نظرت للمرّة الأخيرة إلى عينيه، كانت تريد لحقدها أن يصل إلى مداه الأقصى.



لم يفارق عبد اللطيف بنظره وجه نيفين لحظة، احتفظ بمسافة بعيدة ليداري حرجه، لم يقترب من المشيّعين الّذين سهروا الليل كلّه على الجثامين الأربعة، وضعوهم على مصطبة خشبيّة كبيرة، أحاطوهم بالورود من كلّ ناحية، غطّوهم بأعلام الثورة الكبيرة، وتركوا وجوههم مكشوفة. إنّه التحدّي في حدّه الأقصى. بعد صلاة الصبح دفنوهم في المقبرة الجديدة الّتي قرّرت نيفين التبرّع بأرضها، في الجهة الغربيّة المحاذية لبيتها الّذي تركته يصبح مشفىً ميدانيّاً بالكامل، وانتقلت للسكن في شقّتها الصغيرة القديمة قرب منزل عبد اللطيف، مصطحبة أشياء قليلة جداً تكفي أرملة وحيدة في الستين من عمرها.

في الأيّام اللاحقة، عمل عبد اللطيف ساعات طويلة كلّ يوم في تنظيم المقبرة، رسم حدود الممرّات بين القبور، ترك أمكنة واسعة لزراعة الأشجار والورود، كان يريدها مكاناً أبديّاً لا يشبه أيّ مقبرة، لم يتوقّع ازدحامها بعد سنتين بألف وسبعمئة قبر، نظمها في ثلاثة أقسام، قسم للمقاتلين الشباب الّذين لم يتجاوز عمر أكبرهم خمساً وثلاثين سنة، والقسم الآخر لمدنيّين ماتوا بقصف الطائرات وراجمات الصواريخ وكافة أنواع الأسلحة الثقيلة الّتي استُخدمَت في القصف الّذي لم يتوقّف منذ ثلاث سنوات، عائلات كاملة ماتت، أطفال ونساء ورجال عجائز لم يستطيعوا المغادرة، أصبحت أرض الموت هي كلّ حياته، يقضي أغلب وقته في تنظيم شؤونها.

قالت نيفين لعبد اللطيف حين استطاع النطق بكلماته المعزّية القليلة إنّها لم تعد تخاف، لم يعد يعنيها أيّ شيء أيضاً في هذه الحياة، طلب منها ترك شؤون المقبرة له، تفرّغ لها بالكامل، قضى وقته ينظّف ممرّاتها، زرع الورود في كلّ مكان ووزّعها على كلّ القبور، اكتست المقبرة بأزهار النرجس الصفراء، وكانت نيفين تراقب من بعيد كلّ



صباح عبد اللطيف يعمل دون كلل، انتظرت أن يدعوها لمشاركته زراعة الحبق وشتول أزهار الورد الجوري ورعايتها. منذ تلك اللحظة الّتي كانت فيها تنظر في الفراغ، كان عبد اللطيف يتحوّل ويصبح شخصاً يشبهها، لم يعد لديه ما يخافه، يعيش اللحظة الأكثر شجاعة في حياته، يزورها مساءً، يترك لها قرب باب بيتها أشياء غريبة يقول إنّها كانت تحبّها منذ أربعين سنة، يذكّرها بلحظات قديمة، لم تعد تذكر هل حدثت حقاً في يوم ما، هل سمعت تلك الأغاني وتشمّمت تلك الورود؟ وقت الرجل الّذي منحته الثورة طاقة لا تنضب قليل، يعاني من ازدحام المشاريع، يناقش كلّ التفاصيل الّتي تخصّ البلدة، يشارك في كلّ اللجان، يكنس الشوارع مع الشباب المتطوّعين، يكتب بخطه الجميل اللافتات لتظاهرات يوم الجمعة. في الأيّام التالية أصبحت التظاهرات دون موعد وشبه يوميّة، وفي ربيع 2012 استعدّ الجميع للاحتفال بالذكرى السنويّة الأولى للثورة. أصبح وجود الشباب المسلّحين أمراً عاديّاً، ينظّمون أنفسهم، منشقّين عن الجيش ومتطوّعين انضمّوا إلى شباب البلدة، نظموا الكمائن لعربات الجيش والمخابرات الّتي لم تعد تدخل إلى البلدة متى أرادت.

تشتدّ المعارك كلّ يوم، انتهى النقاش الغاضب بين أنصار الثورة السلميّة وأنصار الثورة المسلّحة لمصلحة المسلّحين الّذين امتلكوا قوّة تبرّد ثأرهم. كلّ شيء جرى بسرعة إلى درجة أنّ نيفين لم تنتبه إلى حجم المسلّحين الّذين يجولون ليلاً في شوارع المدينة، وأصوات المعارك الّتي لا تتوقّف في محيطها، لم يعد هناك وقت للتشييع، عائلات بأكملها هجرت البلدة، شبح الموت يحوم فوق كلّ البيوت، طلاب جامعيّون تركوا دراستهم وحرفيّون وعمّال مياومون، شباب من كلّ الأعمار والمهن تركوا حياتهم السابقة، وبدأوا الانضمام إلى الجيش الحرّ.



تغيّرت المدينة، لم تعد مساءاتها آمنة، أرتال المهاجرين تملأ قلب نيفين بالوحشة، ابنها الثاني رامي لم يستمع إلى رجائها بالخروج من البلاد بعد انشقاقه عن الجيش النظامي. في أوّل فرصة له، هرب من ثكنته مع رفاق له، وانضمّ إلى كتائب درعا المقاتلة، خيّروه بين عبور الحدود إلى الأردن وبين مساعدته في الوصول إلى بلدته «س» وبين القتال معهم ومقاسمتهم المصير. دون تردّد اختار القتال معهم، معتقداً بأنّ كلّ أرض هي أرض الثورة، كان شجاعاً ويعيش الحلم مع رفاقه، لم يفكّر كثيراً في ما يمكن حدوثه، لقد استبدّ اليأس بالجميع، قبل انشقاقه رأى كلّ شيء، لم يكن يحتاج لأحد يشرح له بنية النظام والجيش، شاهد بأمّ عينه النهب والتضحية بالجنود الفقراء، الأوامر كانت واضحة، القتل دون تمييز بين طفل أو امرأة أو عجوز. في الليلة الأخيرة قبل انشقاقه تساوت لديه كلّ الخيارات، لن يكون قاتلاً لأبناء شعبه حتى لو قتلوه برصاصة من الخلف. كانت ليلة عظيمة انشقّ فيها أكثر من أربعين عسكرياً دفعة واحدة، وبعد وصولهم إلى الجبهة الأخرى توزّعت بهم السبل، تفرّقوا في أصقاع الأرض، منهم من عبر حدود الأردن، وآخرون توزعوا على كتائب الثورة المسلّحة، وآخرون اختاروا الانزواء أو العودة إلى منازل أهلهم رغم صعوبة الطرق، رامي رأى بأمّ عينه كلّ شيء، وقاتل حتّى الرمق الأخير، قُتل في معركة تحرير فرع الأمن العسكري في مدينة «د» الّتي استمرّت أكثر من عشرين ساعة متواصلة، لم تستغرب نيفين خبر مقتله حين تلقّته، عرفت من حديثها الأخير معه أنّه لن يستطيع العيش بعد مقتل أخيه الكبير تحت التعذيب. في المحادثة الأخيرة بينهما قبل موته بثلاثة أيّام كان مرحاً، يحدّثها عن رفاقه الّذين يعيش معهم في الجرود القفرة، كان حديثه صاخباً، وكانت تعرف أنّه خائف من شيء ما، لم يخبرها بأمر الهجوم والمعركة الكبرى، طمأنها بكلمات واضحة،



ووعدها بمحاولته الخروج من البلاد. كانت ترجوه بكلّ عواطفها، لا تريد له الموت، يكفيها ما خسرت، لم يبق سواه، لكن في أعماقها كانت تعرف أنّ الموت قد استبدّ به ولن يتركه، كانت مستعدّة لسماع ذلك الخبر في أيّ لحظة، لم تعد تعني لها الكلمات الكبيرة الّتي وصفه بها رفيقه أيّ شيء، كان شجاعاً وقاتل ببسالة، لكنّه مات في النهاية وتركها وحيدة، هذا ما فكّرت فيه وهي تتلقّى التعازي من سكّان مدينتها «س» الّذين عرفوا بالخبر من مواقع الجيش الحرّ الّتي نعته كشهيد وبطل.

استبدّت الوحشيّة في هذه الأرض، فكّرت نيفين وهي تجول على المنازل المدمّرة، لم يبق لها ما تفعله في ما بقي لها من حياة، فراغ داخلي يصفر كريح صفراء في أعماقها، لا يعنيها وصف أمّ الشهداء، كانت تتمنّى لو كان ولداها جبانين، يهربان إلى أرض أخرى، لكنّها في لحظات أخرى تشعر بأنّ كلّ ما حدث كان يجب حدوثه، سيرة طبيعيّة للوهم الّذي عاشه الجميع، الحياة في أزمنة العار والصمت الّذي عاشوه سنوات طويلة يجري الآن دفع ثمنهما، الجميع سيدفعون الثمن، الجلّاد والضحيّة، تصحيح خطأ الحياة المنافقة قد يكون ثقيلاً إلّا أنّه لا بدّ منه في النهاية. كانت تريد العيش مرّتين، ولكن لم يبق الكثير لتراه، تريد فقط رؤية جلّادي ابنها أذلّاء وخائفين، تبادلهم خوفها بخوفهم، وبعدها تغمض عينيها وتموت.



الفصل الثالث

بلبل الّذي يطير في مكان ضيّق

غـادروا القرية فجراً، الضوء القليل كشف لهم حجم الكارثة، كأنّ أرواحاً ما زالت تئنّ تحت الركام، قطع ملابس الموتى ممزقة، بقاياهم وأشلاؤهم تتناثر في الحقول المهجورة، تختلط مع هياكل عظميّة لأغنام وبغال نافقة، التهمت الكلاب ما استطاعت منها وتركت البقيّة للذباب، إنّه خراب عظيم مكتمل سمعوا عنه لكنّهم الآن يواجهونه ويتشمّمون رائحته، رؤيته شيء مختلف تماماً. بلبل يشعر بضرورة الاستهتار بكلّ شيء، وسخافة ما حدث بينه وبين حسين منذ ساعات قليلة، لكنّه لم يكن مستعدّاً للتعليق أو الاعتذار، ويعتقد بأنّ حسين أيضاً لا يرغب في الاعتذار، تتكدّس الضغائن في حياتهما كمجموعة ثياب بالية في خزانة مغلقة منذ زمن طويل.

الجوّ غائم والسماء ملبّدة بالغيوم السوداء، استعادوا الأمل بوصول الجثّة الّتي تعفّنت إلى العنابيّة. القبر، ليكتمل، يحتاج إلى جثّة، الكفن سيمنحها حلّة جديدة، شكلاً مهيباً من البياض، قدّروا المسافة الباقية لوصولهم، ساعتان وينتهي كلّ شيء. أبناء العم سيكملون المهمّة ويدفنون ميتهم. استعاد بلبل الأمل بوصولهم، منذ يوم أمس لم يعد هناك تغطية لشبكة الموبايل وبطاريات موبايلاتهم


مكتبة الفكر الجديد

الثلاثة فارغة. الشيء الوحيد الّذي نسيه حسين هو الشاحن، لكنّه لم يندم حين رأى على الطريق الأبراج مدمّرة، فقدوا الأمل بأيّ اتّصال، حتّى لو كانوا يملكون اتّصالاً، فلن يفيدهم في شيء، ليس لديهم ما يخبرون عنه، هم يحملون الجثّة وفي طريقهم إلى العنابيّة، لم يعد مهمّاً وصولهم في موعد محدّد، فقدوا تهيّبهم أمام الموت، لم تعد الجثّة تعني لهم أيّ شيء، يستطيعون تقديمها لجوقة كلاب جائعة دون أيّ إحساس بالندم، أو رميها على قارعة الطريق دون تكليف أنفسهم برميها في حفرة لستر ندوبها.

عبروا عدّة حواجز للجيش الحر بسهولة، كان المقاتلون لطفاء معهم، تعاطفوا مع هيئتهم المزرية، كانوا يكشفون عن وجه الجثّة، ويعيدون تغطيتها فوراً، لا يحتملون رائحتها، هويّاتهم ساعدتهم كثيراً، العنابيّة منطقة نفوذهم، والكثير من أبنائها يقاتلون في الجيش الحرّ في ريف حلب الشمالي. حين كانوا يكشفون عن كامل الجثّة، ويرون الندوب والشقوق والكدمات على الوجه، الّتي سبّبها وقوعها عن الكرسيّ حين كان حسين يريد رميها للكلاب، يظنّون أنّه قُتل تحت التعذيب، لا أحد يصدّق أنّها جثّة رجل مات مطمئناً في سرير مشفى عامّ في قلب العاصمة، لكنّ إهمال أولاده وقلّة حيلتهم كانا سبب تفسّخها. حملهم وباءً يجب تطويق انتشاره ساعدهم في العبور السريع. تراءت لهم حلب من بعيد، بساتين الفستق الحلبي، وآثار القصف والدمار الواسعة، المدينة المدمّرة أثارت تعاطفهم، وأعادت لهم شعور الانتماء إلى هذا المكان. دخلوا بوابات حلب الشرقيّة والساعة لم تتجاوز العاشرة صباحاً، تفاءلوا مرّة أخرى بوصولهم، أقلّ من سبعين كيلومتراً تفصلهم عن العنابيّة. كلّما اقتربوا شعروا بالقوّة، هم ليسوا غرباء عن هذه الحقول، أقرباؤهم ليسوا بعيدين عنهم، وهنا



اسم العائلة بمثابة بطاقة هويّة، كلّ الناس تقريباً أقرباء لم يغادروا خيام القبيلة الّتي تبذل جهوداً دائمة للحفاظ على عصبتها.

تنفّس بلبل الصعداء، فتح النافذة الصغيرة، تنشّق ملء رئتيه هواء الريف النظيف، أوصاهم الحاجز الأخير بسلوك الطريق الخارجي الّذي يلتفّ حول قرى الريف ويصل إلى العنابيّة، دخولهم إلى حلب سيورّطهم في متاهة أخرى قد لا يخرجون منها بسهولة. لا يعرفون الطريق لكنّ وجود عدد كبير من المسافرين ساعدهم في اقتفاء الأثر، حاولوا الابتعاد عن شعور القوّة الّذي يمنحه الانتماء إلى القطيع، كلّما اقتربوا من العنابيّة حاولوا العودة إلى ذاتهم، والتفكير بغربتهم عن المكان الأصلي الّذي لا يعرفونه، شعور بلبل القديم بالخوف الّذي رافقه زمناً طويلاً عاد إليه، تمنّى لو كان منزله قريباً، كان سيستحمّ ويغسل جسده من كلّ رائحة، رائحة الجثّة والعائلة والثورة والنظام، ويعود إلى سلامه الشخصي، قد يكون الخوف ملاذه الأخير الّذي سيمنحه السعادة. أيّ أشياء تعنيه بعد فقد لميا؟ يسأل نفسه ويجيب: لا شيء، النظام يسمح له بتناول ما يشتهي من الطعام والشراب، وقضاء أوقات فراغه في مشاهدة أفلام السينما المصريّة القديمة، يكفيه القليل، ماذا سيصنع بالحرّية؟ فقد كلّ أحلامه ومن الصعب كسر الشرنقة، وإعادة تكوين ذاته، تأخّر الوقت كثيراً، لقد تجاوز الأربعين، كلّ أحلامه تتجلّى في منزل صغير. حسناً فعل والده حين مات، سيبيعون المنزل الكبير، حتى لو كان مدمّراً تبقى أرضه غالية، يكفيهم ثمنها لشراء شقق صغيرة في أحياء فقيرة، فاطمة ستكتفي بنصف حصّة كما يقتضي الشرع، حسين لن يسمح لها بالنقاش، منذ زمن بعيد كان يحلم بهدم البيت بعد موت أبيه، لا يعني له ذلك المكان سوى الذكريات السيّئة، منه خرج مطروداً، ولم يعد إليه مرّة أخرى.



شعر بلبل بورطته وهو يسهب في التفكير، حدّث نفسه بأنّه حقاً عنكبوت عالق في شباك النسيان، لا أحد يذكره سوى لميا، غيابه لن يسبّب ألماً لأيّ كائن، حتى سؤال لميا عنه كلّ فترة هو نوع من الشفقة ليس أكثر، تحتاج إليه لتثبت لنفسها أنّها ما زالت تلك المرأة الّتي يحتاج الآخرون إلى عنايتها وقلبها الكبير، الباعة في الحارة يردّون على سلامه بصوت منخفض، قد لا يكرهونه لكنّهم لا يحبّونه أيضاً. كان يحتاج إلى هذا النسيان للخلاص من رائحة زوجته، ورائحة البيت الّذي لم يشعر لحظة برغبة البقاء والموت فيه، والمنزل الّذي لا تحبّ الموت فيه بالتأكيد لا معنى له، وهجره سهل جداً، لم يجرؤ على إبداء أيّ ملاحظة، عاش سنواته السبع معها مستسلماً، لم يعترض على طقم الكنبات الضخم الّذي اختارته، اللوحات الّتي علّقتها على الجدران، الزهور البلاستيكيّة الّتي وزعتها في الزوايا كانت تسبّب له ضيقاً غريباً، لكنّه لم يجرؤ على رميها في القمامة كما كان يتخيّل في أحلام يقظته. كلّ ما حدث في السنوات الّتي قضياها معاً لم يعنِ له أيّ شيء. يعترف بلبل الآن بأنّه كان يخاف منها، نوع غريب من الخوف، يشعر بأنّه لا يستحقّها رغم أنّها تشبه أغلب النساء.

بعد أشهر قليلة من زواجهما لم يستطيعا التحدّث سوى عن المسلسلات الّتي يتابعانها بشغف، كي لا يكتشفا أنّهما كائنان منفصلان منذ اللحظة الأولى، يريدان تمرير سنوات العمر، ورمي ثقلها عن كاهليهما، كانت زوجته تحلم بتلك اللحظة الّتي ستتمدّد فيها على السرير ممسكة بيده قبل موتها، صورة عاطفيّة صدئة يتسامح فيها الناس قبل الموت، ويمضون إلى غياهب النسيان الّذي يرميهم كحمولة زائدة، صورة دراميّة ضروريّة كانت زوجته مستعدة لدفع كلّ عمرها من أجلها، تحدّثه دوماً عن الشيخوخة بأمل، لا أعرف لماذا شخنا مبكراً. كانت الحياة بالنسبة إليها ثلاث لحظات، يوم



الولادة، يوم الزواج ويوم الموت، وما بينهما هو برزخ يجب عبوره بأقلّ قدر من المشاكل. الميزة الوحيدة الّتي أحبّها في زوجته عدم تطلّبها، تكتفي بالقليل من الجنس، تعتبره وسيلة تواصل أكثر منه لذّة لامتناهية يجب رشفها ببطء وقوّة.

كلّما اقتربوا من العنابيّة أصابه انقباض غريب، يثقله شعور عميق بالذنب لا يعرف سببه، يفكّر بتقصيره في حقّ أبيه، ابتعد عنه في السنوات الأخيرة من أجل لا شيء، عرض عليه أبوه العودة للعيش معه في المنزل الكبير بعد طلاقه، اكتفى بالعيش معه شهوراً قليلة، عاد بعدها إلى وحدته، رغب في اكتشاف ذات أخرى داخل ذاته، كان يرسمها طوال سنوات عمره في أحلام يقظته، تخيّل نفسه شجاعاً مثل زهير ويليق بامرأة تشبه لميا، أو أحمقَ مثل حسين، مفكّراً كصادق جلال العظم الّذي كان مولعاً بكتبه وطريقة حياته الّتي لا يعرف عنها أيّ شيء، بل يتخيّلها كما يتخيّل الكثير من الأشياء. قضى سنوات وحدته في عزلة كاملة، احتسى خموراً رديئة في عطلة نهاية الأسبوع، تناول طعاماً بائتاً وبارداً، مارس العادة السرّية وازداد خوفاً من كلّ شيء، كأنّه معلّق في مسمار السماء الصدئ، لا يستطيع الهبوط على الأرض وعاجز عن الطيران.

لم يحبّ بلبل الوحدة يوماً، لكنّه تورّط أكثر ممّا يجب في البحث عن شكله النهائي. لم ينتبه إلى مرور الزمن، فجأة أصبح في الثانية والأربعين من عمره، لم يسأل نفسه ماذا فعل في كلّ هذا الوقت، ببساطة لم يفعل أيّ شيء، كان وجوده يوازي عدمه، الشيء الوحيد الّذي كان يفعله هو مراقبة حياة البشر واكتشاف أنّهم مثله، مجموعة كتل تسير على الأرض، تشغل حيّزاً في الفضاء، تقضي عمرها في السعي لعدم الموت، تقوم بأعمال مكرّرة كلّ يوم، وحين تنتبه مثله لعبور الزمن تحاول اللحاق بما بقي، تبحث عن أفضل وسيلة



للابتعاد عن أحلام اليقظة، مشكلة البشر الحقيقيّة. الإيمان هو الطريق الأقرب للراحة النفسيّة، لكنّه لم يعرف الطريق إليه، يحتاج إلى إيمان قوي، يبعده عن الأسئلة المؤرّقة لا نصف إيمان، كان يلحظ وجه جارته حين تعود من الكنيسة كلّ يوم أحد أكثر قلقاً، أيضاً جارته لم تنجُ من شغف الأسئلة، يعجبه ادّعاؤه بتفوّقه في قراءة الطباع البشريّة، لكنّ عدم يقينه في التقاط الحقيقة كان يعيده دائماً إلى نقطة الصفر. أحلام يقظته تتناسل ولا تنتهي. هناك في أحلام اليقظة يعيد تكوين جسده، جميلاً، ممشوقاً، قويّاً، لا يهمّه استعارة مفردات من يسمّيهم بالرعاع حين ينتبه لاستعارته صور النساء موديلات الإعلانات الّتي لا تتوقف التلفزيونات عن بثّها. اعتقد أنّ استعارته من الماضي تجعله متميّزاً، لكنّ تصنيع الماضي يحتاج إلى طاقة لا يمتلكها، خيال يجب الاعتراف بأنّه لا يمتلكه، من الصعب اكتشاف أنّك عبارة عن وهم، تحسَب نفسك بعيداً عن قوّة الكتلة الجماهيريّة وبطشها، في النهاية تكتشف وهم فرديّتك المتميّزة، وما أنت إلا حذاء قديم يسير وسط الحشود. كان بلبل يشعر باسترخاء غريب حين يصل إلى هذه النقطة من أحلام يقظته المزدحمة بالأفكار والصور.

منذ سبع سنوات، يعيش بلبل في الحارة نفسها الّتي عاشت فيها لميا حين كانت طالبة، أغلب سكّانها نازحون وجنود فقراء، موظفون وفلّاحون مهاجرون من قراهم البعيدة، أغلبهم مسيحيّون ودروز ومسلمون فقراء من كلّ الطوائف، لم تعد حارة مسيحيّة كما كانت قبل ثلاثين سنة، حافظت على كنائسها ومقبرتها المسيحيّة.

حين يخرج من باب منزله الصغير يصبح شخصاً آخر، يبتسم لكلّ عابر طريق، يتحدّث بصوت منخفض مع أصحاب البقاليات، يخفض نظره أثناء مرور النساء، يحاول مساعدة الأطفال الصغار حين يقعون أرضاً، يفكّر بأنّ انطباعهم الجيّد عنه سيساعده على



تكوين صداقات وانتماء إلى الحارة الجديدة، لكنّه في أحلام يقظته كان يشتهي كلّ النساء، يتمنّى لو كان شخصاً منحلّاً، يطارد النساء اللواتي يكشفن عن أفخاذهن للمارّة، يتحيّن فرصة عودة جارته سمر من عملها في مؤسّسة البريد، ليحشرها تحت الدرج، يعرّي نهديها ويأكلهما بقوّة وبطش لو كان ذلك المنحل الطائش، لكن رغم لطفه الشديد ومجاملاته الزائدة، وعدم طيشه وأخلاقه الرفيعة، لم يعترفوا به واحداً منهم، نظروا إليه كرجل مسكين يبحث عن سلامه النفسي بعيداً عن قسوة أهله الريفيّين.

لا يعرف سبباً لانقباض قلبه كلّما اقتربوا من العنابيّة، لا يريد رؤية هزيمة أبيه، بعد خمسين سنة يعود إلى مكانه الأوّل، الّذي تركه بإرادته بحثاً عن ذاته، الّتي لم تكن سوى مجموعة شعارات مستعارة من زمن مضى، لكنّ الأب تشبّث به. من الصعب رؤية خوائك بعد نصف قرن من الوهم، تعود كتلة متفسّخة تنبعث منك روائح بشعة، وتتناسل الديدان من خاصرتك. التفسّخ إهانة حقيقيّة للجسد وليس الموت، الآن فهم بلبل معنى تكفين الجسد قبل الدفن. إنّها اللحظة الأخيرة للكرامة قبل الإهانة، والصورة الأخيرة الّتي يجب احتفاظ الأحبّة بها قبل الزوال.

نظر بلبل إلى ساعته الّتي تشير إلى العاشرة صباحاً، فرصته الأولى للغرق في أحلام يقظته منذ ثلاثة أيّام، لم يعد يكترث بالنظر إلى وجه حسين في المرآة ومراقبة انفعالاته، شعر بانتهاء مهمّتهما وعلاقتهما على حدٍّ سواء، كأنّ الأب أراد لهما اختبار كلّ شيء في هذه الأيّام الثلاثة. لكنّه، على عكس المتوقّع، شعر بعلاقتهما في أحسن أحوالها الآن، عراكهما طهّر ما في نفسيهما من رواسب الماضي، قال لنفسه قد يحتاجان إلى عراك آخر، ليعودا كما كانا، طفلين بإمكانهما شطب قطار بجرّة قلم أو رسم عجل يتزلّج على الجليد. يتقبّل البشر



من الأطفال كلّ أنواع اللامعقول، كأنّ احترام الخيال مرتبط بمرحلة معيّنة من العمر. لو بقيا طفلين لما خاف أحدهما من الآخر، فاطمة أغمضت عينيها وغفت لدقائق، هي الأخرى كانت خائفة من اقترابهم من العنابيّة. بعد ساعات ستشعر باليتم الحقيقي، لا يمكنها الاعتماد على أخويها، ليسا أنانيّين بل ضعيفان إلى درجة كبيرة، القويّ يحتاج إلى رعايا لاستعراض نفوذه، وجود أخت وحيدة وضعيفة يناسب وضعهما لو كانا قويّين. سمع بلبل صوت حسين يوقظ فاطمة ويطلب منها تجهيز الهويّات، لقد اقتربوا من حاجز، فتح بلبل عينيه وعدل من جلسته، أعجبه تجاهل حسين الّذي لم ينزعج، بل تركه لأحلام يقظته لأنّ ذلك يناسبه تماماً في ما بقي من طريق، سارت الأمور أسرع ممّا توقعوا. كان حسين يبتسم، يمسك بذراع أحد المقاتلين ويسيران نحو السيّارة، إنّه قريبهم من طرف أمّهم، أحد المنشقّين عن الجيش النظامي الكثر في هذه الأرض، فتى يافع لم يكمل الثانية والعشرين من عمره، لهجته الريفيّة القويّة أعادت إلى الأب الاعتبار، كان لطيفاً في سلامه عليهم وتقديم نفسه، ذكيّاً بتجاهل وضع الجثّة المزرية، تحدّث بجهاز يحمله مع الحاجز الآخر، مهّد لهم عبوراً سريعاً وآمناً، نبّههم من الحاجز الّذي سيليه، قال إنّ المقاتلين المتشدّدين يزعجون المسافرين، أوصاهم بالكلام القليل وتجاهل الاستفزازات. كانت القرى الّتي مرّوا بها متّشحة بالسواد، أغلب بيوتها مدمّرة، ما بقي منها مهجور، آثار معارك عنيفة، يمكن تشمّم رائحة موت طازج، وإشارات واضحة لمقابر جماعيّة. الجميع يريد النسيان ومرور الوقت سريعاً لينتهي هذا الكابوس. مرّوا بسهولة على الحاجز الآخر، لقد اقتربوا كثيراً من العنابيّة، لا يعرفون هذه القرى ولا الطرقات، بالنسبة إليهم لا شيء مثيراً فيها على كلّ حال، جميعها تتشابه، الألوان نفسها لثياب الفلّاحات، تجاهل بلبل قلق حسين من ضياعهم، الطريق فارغ



تقريباً من السيّارات، يريد رمي حمل ثقيل عن ظهره والعودة إلى حياته المختلفة، حاول بلبل التدقيق في وجه حسين، خمّن أنّها المرّة الأخيرة الّتي سيراه فيها، لم يعد بينهما أيّ شيء، لكنّه كان متعباً إلى درجة كبيرة، أيضاً يريد التخلّص من الجثّة، والتحلّل من واجبه تجاه وعده لأبيه بدفنه في مقبرة عائلته، لكنّ لحظات حنين فظيعة انتابته إلى أيّام الطفولة البعيدة، تداخلت الصور بنحو غريب، تهرب منه صورة أمّه، لا تريد الثبات للحظة كافية لتشكيل صورة عائلة، قال بلبل لنفسه حتى الصور تمزّقت، لا يمكن لأحدهم تجميع صورة واحدة. لم يكونوا سعداء في يوم من الأيّام، كلّ ما بجّلوه كان وهماً تخلّص منه حسين، استبدله بوهم آخر، الأب لم يكن مثاليّاً كما هي صورته الّتي حرص عليها أكثر من حرصه على حقيقتها، قاسياً ومثقلاً بخوف دائم من ماضيه وحاضره ومستقبله.

في سنواته اللاحقة، بدأ الأب يستعيد علاقاته مع العنابيّة، يخابر أولاد عمّه، ويطمئنّ على أبناء إخوته، شعر عبد اللطيف للحظة بحنينه إلى أرضه الأولى، لكنّ كبرياءه لم يسمح له باقتراف سعادة قضاء آخر سنوات عمره قرب قبور أحبّته، زوجته وأخته ليلى وأبيه وإخوته الكبار الّذين لم يبق منهم أحد سوى نايف الّذي تجاوز الثمانين من عمره، وما زال يقوم بالدور نفسه، استقبال الغائبين من أبناء العائلة الموتى، يؤدّي دوراً مكرّراً عشرات المرّات، يجلس في صدر الغرفة الكبيرة لمنزله، يستقبل المعزّين وينتبه إلى كلّ التفاصيل الّتي يجب مراعاتها، انتظار الأقارب البعيدين وإبلاغهم بضرورة القيام بالواجب، لم يبق له سوى هذه اللحظات ليعود كبير العائلة المبجّل من قبل الجميع. يستيقظ في الخامسة فجراً، يتناول إفطاره، ويسير نحو المقبرة، يقرأ الفاتحة للجميع، يكمل طريقه في بحث عبثي وفي التحدّث إلى من بقي في هذا المكان، الّذي هجره أغلب أبنائه إلى



حلب. إنّها دورة عبث جديدة، أيّام متشابهة تتراكم، سئم من انتظار الموت، يعيد رواية القصص نفسها الّتي رواها آلاف المرّات بنفس المفردات، وها هو ينتظر جثّة آخر إخوته لدفنها، سيكون ألمه أقلّ، ذكرياته معه لا تتجاوز سنوات الطفولة والشباب الأولى، وبعد الدفن سيختفي كعادته لأشهر عديدة في المنزل ينتظر الموت الّذي أخطأه مرّات عديدة. النسيان سيساعده على العيش أكثر، كما الجميع يحتاج إلى تحويل ركام الذكريات السوداء إلى صفحة بيضاء حاول بلبل اختراعها طوال عمره عبر أحلام يقظته، كان يتخيّل فيها نفسه ابناً لعائلة أخرى، بهويّة واحدة غير ممزّقة، كانت لميا دوماً في تلك العائلة سيّدة منزله وأمّاً لأولاده، حتى حين كان يضاجع زوجته كان يحلم بأنّ لميا شريكتهما في السرير، يستدعي رائحتها، لكن مع تكرار الصورة كان يشعر بتراجع الإثارة، لميا بوجهها النحيل، وشفتيها الرقيقتين وجسدها النحيف تشبه أمّاً رؤوماً أكثر منها امرأة مثيرة، لا تصلح لرجل يبحث عن الإثارة لممارسة عادته السرّية.

الجثّة المزرية تفسّخت بالكامل، لم تستطع الأغطية الثقيلة منع رائحتها الفظيعة من الانتشار وزكم أنوفهم، لم يجرؤ أحد على رفع الغطاء عنها لتفقّدها، الانتفاخ الكبير كان واضحاً، لم يبق بينها وبين الانفجار سوى لحظات قليلة، لقد احتملت ثلاثة أيّام، لو كانت في العراء لجذبت رائحتها كلّ الحيوانات المفترسة من مسافات بعيدة. فاطمة أغلقت أنفها وحسين فتح الشباك المجاور محتملاً لسعات الهواء البارد هارباً من الرائحة الّتي لا تطاق، لقد تحوّلت الجثّة إلى جيفة، لم تعد تصلح حتى للوداع، تكفيها صلاة سريعة وبضع حفنات تراب.

قطعوا القرى وأذهلهم منظر الأعلام السوداء المرفوعة على المباني البعيدة والقريبة، هياكل دبّابات، سيّارات عسكريّة محترقة، بقايا معارك تدلّ آثارها على شراستها، وكثير من الموتى كانت هذه



السهول آخر ما رأوه. لم يكن مزاج بلبل رائقاً للتفكير بالموتى. وصلوا إلى الحاجز ما قبل الأخير، كتل إسمنتيّة ضخمة موزّعة بطريقة تجبر السيّارات على السير ببطء شديد، مسلّحون بعيدون وقريبون يوجّهون بنادق قنّاصة، وجوههم مقنّعة وملابسهم سوداء، العصبات على رؤوسهم تشير إلى انتمائهم إلى مجموعة متشدّدة احتلّت الكثير من طرق ريف حلب الشمالي والشرقي، كانت الأخبار عن بطشهم مرعبة. انتظروا دورهم بصمت، لم يعد لديهم شيء يقولونه، الصمت عنوان يأسهم وخوفهم، طلب حسين من فاطمة تغطية وجهها جيّداً، لفّت منديلها على وجهها. فتح رجل مقنّع يحمل رشاشاً ثقيلاً على كتفه باب الميكروباص، ابتعد قليلاً، الرائحة أفزعته، طلب منهم النزول وإيقاف السيّارة على حافة الطريق، تحدّث مع رفيق له، تقدّم نحوهم ثلاثة مسلّحين تدلّ لهجاتهم على أنّهم غير سوريّين، أحدهم تونسي يحاول التحدّث بلغة عربيّة فصحى، شرحوا له أنّهم في طريقهم إلى العنابيّة لدفن جثّة أبيهم، قدّموا له الأوراق والهويات، سأل عن مكان إقامتهم في دمشق، أخبروه بكلّ فخر بأنّهم يقطنون مدينة «س»، ظنّوا أنّ انتماءهم إلى هذه المدينة سيسهّل عبورهم، تحدّث مع أحد بواسطة جهاز، طلب من فاطمة البقاء في السيّارة، ومن بلبل وحسين مرافقته، قادهما إلى مبنى قريب، وطلب منهما الانتظار.

جلس حسين وبلبل على صوفا خشبيّة عارية، طال انتظارهما أكثر من خمس ساعات، مرّ من أمامهما مقاتلون مقنعون، لا شيء يدلّ على شخصيّاتهم أو جنسيّاتهم، لكنّ كلّ ما فيهم يدلّ على هويّتهم، ملابسهم السوداء وأقنعتهم ولحاهم الطويلة، يخرجون ويدخلون إلى غرفة كبيرة في صدر المبنى، الوقت مرّ ببطء غريب، لا أحد يتحدّث إليهما، المبنى الّذي كان في ما مضى دائرة حكوميّة تحوّل إلى مقرّ إمارة التنظيم، يخرج من طوابقه السفليّة حرّاس يصطحبون سجناء



مقيّدين، معصوبي العيون، يبدو الإنهاك على أجسادهم ووجوههم. لم يفهما أيّ شيء ممّا يحدث هنا، حاول حسين التحدّث إلى أحد المقاتلين فنظر إليه باستغراب شديد وتابع طريقه، عاد إليهما الرجل نفسه، أشار إليهما بالنهوض والسير وراءه، دخلا إلى غرفة صغيرة، في وسطها طاولة كبيرة وجهاز كمبيوتر محمول، وكرسيّ واحد يجلس عليه رجل مقنّع بلباس الميدان الكامل يقلّب هويّاتهم، حدّثهم بلهجة قريبة من لهجة قريتهم بلغة عربيّة مضحكة، حاول تفخيم الكلمات وهو يتحدّث بالفصحى، قال إنّهم سيخضعهم لاستجواب عن أمور دينهم، أضاف مجرّد أسئلة يجب الإجابة عنها ليسمح لهم بالمرور، لم يضف أيّ شيء، أشار إلى الرجل المقاتل بأخذهم إلى غرفة القاضي الشرعي للاستجواب، قبل خروجهم قال إنّهم يعرفون انتماء أبيهم القديم إلى حزب البعث، كان هذا منذ خمسين عاماً، لكنّ التاريخ لا يموت هنا، الشخص عبارة عن صورة قديمة، كذلك يعرفون أنّهم من عائلة المقدّم جميل الّذي أعدمه النظام منذ أكثر من أربعين عاماً، الماضي يلاحقهم، كان حسين يعرف أنّ اسم عائلتهم لن يساعدهم، بل سيكون كارثة عليهم، سيحاسبونهم على أوهام قديمة، لكنّه خمّن هويّة الرجل الّذي أمر بتحويلهم إلى القاضي الشرعي، كان حسين متأكّداً من أنّه واحد من أبناء قريتهم الثلاثة الّذين التحقوا بهذا التنظيم.

خرجا من الغرفة وراء المقاتل الّذي قادهما إلى مبنى آخر، تعلو بابه لوحة كبيرة كُتب عليها «المحكمة الشرعيّة»، كان جمع من النساء والرجال ينتظرون في الممرّات، رغم العدد الكبير للبشر، كان الصمت يعمّ المكان، اخترقا الجموع وانعطفا وراء المقاتل في ممرّ ضيّق ينفتح على ساحة ترابيّة كبيرة حولها عدّة غرف مغلقة، يحرسها رجال أشدّاء ضخام الجثّة، وأياديهم على زناد البنادق السريعة



الطلقات، دخل بلبل أوّل الأمر إلى قاعة المحكمة، طلب المقاتل من حسين الانتظار. سأله القاضي بدون مقدّمات أسئلة بسيطة عن عدد ركعات الصلاة في كلّ وقت، صُدم بلبل بالسؤال، عدّد له الصلوات وأخطأ في عدد الركعات، سأله مباشرة إن كان يصلّي ويقوم بواجبات دينه، أجاب بلبل دون خوف بأنّه لا يؤدّي من الشعائر سوى الصيام والزكاة، سأله عن الزكاة ومقدارها، لكنّ بلبل لم يعرف القصد من السؤال، أسمعه القاضي مقطعاً من قرآن مجوّد، سأله عن اسم الآية، ساد صمت انتظر فيه القاضي الإجابة، وفي نهاية الاستجواب سأله عن رأيه في التنظيم المتشدّد. رغم إحساس بلبل بورطته الّتي تستدعي منه كلّ شجاعته للخروج منها، شعر بانزلاقه في هوّة عميقة، المفاجأة كانت كبيرة إلى درجة لم يتوقّعها. صمت بلبل وترك نفسه تتسرّب ببطء إلى تلك الهاوية، الحديث لن يكون في مصلحته، القاضي أعاد توجيه بضعة أسئلة إلى بلبل الّذي لم يكن لديه أيّ إجابة. حاول القول إنّ الدين معاملة وأمانة، لكنّه اكتفى بالصمت. عادت إليه الرغبة في أحلام اليقظة، الصمت أزعج القاضي، استجمع بلبل كلّ طاقته، حاول شرح مهمّتهم بحمل جثّة أبيهم لدفنها، مؤكداً أنّه سيعتني في الأيّام المقبلة بتأدية الشعائر، سيصلّي كلّ الفروض، ويعود لسماع القرآن وحفظه كما كان يفعل حين كان طفلاً صغيراً. أشار القاضي بيده، عصب المقاتل عينيه بقطعة جلديّة، وأخرجه من باب خلفي للقاعة، نزل به درجات قليلة، سمع تكّة باب يُفتح، وشعر باليد الّتي رمته بقوّة إلى داخل الزنزانة.

نجح حسين في اجتياز الامتحان، اكتفى القاضي بسؤاله عن تأدية الشعائر الدينيّة، أجاب حسين بقوّة أنّه مسلم جيّد، يؤدّي كلّ شعائره، شرح له عدد الركعات وطريقة الوضوء، حمد الله بحماسة على نعمة الإسلام، اكتفى القاضي بأسئلة بسيطة كان حسين يعرف



أجوبتها، سمح له بالمغادرة، وطلب منه نسيان أمر أخيه بلبل، سيبقى عندهم لإكمال دورة شرعيّة في أمور دينه.

خرج حسين من المبنى، حين وصل إلى السيّارة فوجئ بأنّ فاطمة أصيبت بالخرس، ساعات الانتظار الخمس كانت مرعبة، عطّلت حبالها الصوتيّة. أشارت بإصبعها إلى جثّة أبيها الّتي تتناسل الديدان منها بكثافة، تحرّك بسيّارته، وغادر المكان المرعب مسرعاً كهارب، خاف أن تلتهمهم الديدان أيضاً، لم يكترث لخرس فاطمة، ظنّه لحظة رعب ستنتهي، عند الحاجز الآخر طلب من مقاتل مساعدته والاتصال بأحد أفراد عائلته، لم تعد المسافة بعيدة، الديدان تناسلت بأعداد هائلة، لم تعد السيطرة عليها ممكنة، تسلّقت نوافذ الميكروباص، غطت المقاعد. انتقلت فاطمة إلى المقعد الأمامي، حاولت الكلام لكنّها لم تستطع، عرفت أنّها خرساء، ولن تعود كما كانت، فقدت رغبتها في محاولة الكلام مرّة أخرى، استسلمت لعالمها الجديد، تحدّث حسين مع أحد أولاد عمّه الّذي وعده بملاقاته، طلب منه عدم مغادرة الحاجز وانتظاره. رمى حسين عن كاهله المسؤوليّة، لا يستطيع انتظار الفجر، ولا يستطيع السير ليلاً في أرض أزهر فيها الموت، لم يبق من سكّانها إلّا الأيتام والأرامل، شعر بسخافة حمل جثمان أبيه كلّ هذه المسافة، البيوت على جانبي الطريق مدمّرة بالكامل، القرى مهجورة، آثار قصف الطيران واضحة للعيان، حتى الهياكل العظميّة لم يكترث أحد بها.

لم يطل انتظار حسين على الحاجز، لاحت أضواء سيّارة قادمة نحوه من بعيد، شعر براحة غريبة حين ترجّل قاسم ابن عمّهم المسلّح مع ثلاثة من أبناء عمومته، لحيته طويلة، عرف حسين ابن عمّه الصغير الّذي كبر كثيراً خلال السنوات الأربع الماضية، تذكّره مراهقاً خجولاً يحاول إقناع عائلته بإكمال دراسته خارج البلاد. صُدم أبناء



العمّ بمنظر تناسل الديدان من الجثّة بأعداد مخيفة، تحاول التهام فاطمة الّتي استسلمت ولم تعد تنظّف ثيابها من الديدان العالقة. لم يضيّعوا وقتهم بالاستماع إلى تفاصيل رحلتهم الشاقة، طلبوا من فاطمة الانتقال إلى السيّارة الأخرى، أخبرهم حسين باعتقال بلبل عند حاجز التنظيم الإسلامي المتطرّف، تبادلوا النظرات وقرروا معالجة الأمر بهدوء، طمأنوا حسين أنّ الأمور ستكون على ما يُرام، لا داعي للقلق. الطريق لن يستغرق أكثر من ساعة، لم يتوقّفوا على الحواجز الباقية، اكتفوا بسلام سريع وتبادل كلمات عزاء قليلة مع رفاق قاسم ابن العمّ المسلّح، حديث سريع عن بلبل المحتجز، وكلمات غامضة عن وساطات وتهديدات في حال استمرار احتجاز بلبل، شعرت فاطمة بالخوف على مصير بلبل، لكنّها لم تحاول الكلام، استسلمت لقدرها كخرساء، مصيره معلّق بين يدي عائلة لا تعرفه ولا يعرفها بما يكفي، لكنّ الأعراف تقتضي الدفاع عن نسب الدم في هذا الشمال المنكوب منذ الأزل.

استعاد حسين عافيته، حاول تناسي بلبل لكنّه لم يستطع، عادت إليه صورهما المرحة في الطفولة، شجاراتهما الصغيرة واستخفاف حسين الدائم بجسم بلبل الضامر، رأيه الحكيم وتهذيبه الدائم. الطفولة هي الّتي تحميهما الآن أكثر من الحاضر والمستقبل، لم يبق سواها يحسدهما عليها الآخرون، لكنّها في الحقيقة كانت أيضاً وهماً، لا تختلف عن أيّ طفولة أولاد موظفين صغار، أمّ ترقّع الجوارب وتقصّر الثياب لتناسب أعمارهما، وأوهام أب حكمت حياته، ولم تترك له مجالاً للاهتمام بالتفاصيل. كان متأكّداً من أنّ أبناءه سيصبحون أشخاصاً مرموقين في المجتمع، لكنّ ذلك الزمن بأكمله انتهى، لم يبق من جيله سوى أخيه نايف الّذي رفض هجر القرية،



يهتمّ بقبور إخوته وأصدقاء جيله، يدفنهم بهدوء ويأخذ عزاءهم في مكان جلوسه ذاته الّذي لم يغيره مذ كان شاباً صغيراً.

كان الطريق سهلاً رغم العواصف الشتائيّة، المطر لم يتوقّف تلك الليلة. استرخى حسين. في نهاية المطاف سلّم الأمانة إلى أصحابها. منتصف الليل، وصلوا إلى العنابيّة، كانت الأضواء في منزل عمّهم نايف مضاءة، تُسمع منه همهمات رجال ينتظرون الجثّة في الداخل، وأصوات كؤوس شاي. تصرّف قاسم بقسوة، منع الجميع من رؤية الجثّة، قرّر موعد الدفن بعد صلاة الصبح، لقد اعتادوا الدفن فجراً، فغارات الطيران لا تبدأ قبل السابعة صباحاً. اصطحب معه شابّاً وذهبا إلى المقبرة، حفرا القبر ولم يستمع قاسم إلى تعليمات أبيه نايف أو إلى وصيّة عمّه المتوفّى. اختار عبد اللطيف أن يُدفن في قبر أخته ليلى كما أخبرهم حسين، وأخوه نايف أمر ابنه بدفنه قرب قبر أمّه. كان نايف يريد تنفيذ وصيّة أمّه الّتي ماتت منذ أكثر من أربعين سنة، والّتي قالتها بجملة واحدة أريد لقبوركم الإحاطة بقبري، لكنّ الشاب الصغير المسلح اعتبر الوصايا ترفاً. حفر قبراً لعمّه بعيداً وضائعاً في زحمة القبور، فبقيت ليلى متفرّدة، بعيدة، منبوذة، تحيط بقبرها مساحة كبيرة فارغة، كلّ فترة يغرس فتية مجهولون أشجار ورد صغيرة فيها، سرعان ما تذبل وتموت. بقيت سيرتها حيّة رغم محاولات العائلة طمسها، الحكايات هنا تتحوّل وتُروى بطرق جديدة لكنّها لا تموت. بدا حسين راضياً، وهو يتلقّى الثناء على شجاعته في تنفيذ وصيّة أبيه. في أعماقه يرى صورة بلبل صافية، رغم كلّ ضعفه صمّم على تنفيذ وصيّة أبيه، تبادل العمّ نايف مع حسين كلمات قليلة وطلب منه ومن أخته فاطمة الذهاب للنوم ساعات قليلة، غداً سيكون يوماً شاقاً. أغلب سكان القرية هاجروا، لكن يجب فتح العزاء وانتظار الأقرباء والأصدقاء. قبل غفوته، سمع حسين صوت رشقات



رصاص في الهواء، وحركة في الغرفة الأخرى، حيث كانوا يغسلون أباه ويكفّنونه. سمع حديث أبناء العمّ واضحاً عن الدود الّذي يجب إغراقه وقتله في الماء المغليّ. وصلت جثث مقاتلين من أبناء القرية من جبهات بعيدة، سمع حسين أصواتاً تتبادل أسماء القتلى الجدد إلا أنّه لم يكترث، تكوّر على نفسه كقنفذ محاولاً النوم، جسمه متعب وروحه مشوّشة، غربة فظيعة تغلغلت إلى أعماقه. تمنّى لو استطاع العودة صباحاً إلى منزله، لا يريد رؤية بلبل وفاطمة مرّة أخرى، لا يريد معرفة قبر أبيه لزيارته والعناية به، غفا ولم يعد يميّز الأصوات العالية، تكرّرت رشقات الرصاص أكثر من مرّة تعلن عن وصول جثث جديدة، أم هي الجثث نفسها ورفاقهم يبعدون الخوف عن أنفسهم بثقب السماء بالرصاص، فكّر حسين دون اهتمام بمعرفة التفاصيل. بعد غفوته رأى مناماً غريباً لن ينساه لزمن طويل، كان فيه بلبل يطفو ويسبح في السماء مبتسماً كطائر حرّ طليق، بدا كملاك وهو يسبح في الفضاء ينثر الورد على جموع المشاة في حيّ الصالحيّة الدمشقي.

في اللحظة ذاتها كان بلبل يفكّر بأنّه سيموت قريباً فعلاً، لا أمل في الخروج من هذه الزنزانة الّتي تضمّ أكثر من عشرين سجيناً ارتكبوا موبقات، أحدهم شرب خمراً بين أشجار الزيتون، فضحته رائحة فمه على الحاجز. رجل آخر شتم الربّ في سوق مدينته. الباقون لا يمارسون الشعائر، يشبهون بلبل لكنّهم أقل خوفاً منه وغير مكترثين، إنّهم هنا منذ زمن طويل، ينتظرون انتهاء المفاوضات حول إنهاء خطفهم، غرباء ضلّوا الطريق، أبناء عائلات حاولوا الهرب عبر الحدود التركيّة، آخرون اتُّهموا بالعمالة للنظام، وجميعهم ينتظمون صباحاً في دروس دين يلقيها عليهم شيخ يشتمهم ويصفهم بالضالّين. منذ اللحظة الأولى في الزنزانة تجمّدت حواسّ بلبل، لم يستطع النوم من شدّة البرد، في الصباح الباكر فُتح الباب وأمر السجّان الضخم



المساجين بالنهوض، إنّه وقت الوضوء وصلاة الفجر، توضّأ الجميع بمن فيهم بلبل الّذي شعر بأنّه سيتجمّد، احتمل بصمت، لم يتبادل الكلام مع أحد، كان في أعماقه حزيناً جدّاً، غير عابئ بما سيحدث، مستسلماً لقدره، شعر بأنّه لن يحزن كثيراً إذا قتلوه.

طوال شتاء 2012 انتابته لأوّل مرّة أسئلة جديدة عن جدوى ما يحدث في طول البلاد وعرضها، حفرت صور الشباب المتظاهرين القتلى في أعماقه، صور جموع المشيّعين والرصاص ينهمر فوق رؤوسهم، في المقابل هستيريا جموع المؤيّدين يطالبون النظام ببطش أكبر. قرأ على مواقع مؤيّدة مجموعة نقاشات لصبايا وشباب يبدو من صورهم على الفايسبوك انتماؤهم إلى عائلات متمدّنة، يعاتبون النظام على عدم حرق درعا، وتدميرها بالكامل، مضيفين بسخرية أنّ تحويل المدن إلى حقول بطاطا شيء رائع، أغلبيّة أنصار النظام يؤيّدون هذه الأفكار بحرق البلاد من شمالها إلى جنوبها، يهلّلون للقتل والذبح، وكأنّ لديهم ثقة عارمة بالنصر، هذا الأمل انتهى بعد أربع سنوات لكنّهم ما زالوا يطالبون بحرق المدن وهدمها على رؤوس ساكنيها، وفي الطرف المقابل كانت مجموعات تقوم بنفس الأفعال، تطلب إحراق المؤيّدين وقتلهم وتهلّل لذبحهم. كان بلبل يفكّر بصمت ويتساءل ماذا تفعل بنصر يرشح دماً؟

كان بلبل يفكّر بأنّه حين تتهاوى جدران خوفك تشعر بفراغ غريب، لا يملأه إلّا نوع جديد من الخوف لم تختبره من قبل. لا تعرف له تسمية، لكنّه خوف على أيّ حال لا يختلف عن النوع القديم في طعمه، يجعلك تشعر بأنّك الوحيد الخائف وسط طوفان بشر رأى في الموت حلّاً نهائياً لمعضلة الحياة، الموت الجماعي أحياناً نوع من الحلّ. كثيراً ما تخيّل بلبل مجموعات بشريّة كاملة تنتحر في طقس جماعي احتجاجاً لأنّ الحياة أصبحت ملوّثة إلى هذه الدرجة،



لا يمكن احتمال العيش وسط طوفان بشري يحرّض على القتل إلى هذه الدرجة، يستحضرون ثارات من أعماق التاريخ لتبرير القتل، اقتنع بأنّها مشكلته الشخصيّة، وليست مشكلة عموم البشر الّذين وجدوا ضالّتهم بالانتماء إلى مجموعات بشريّة تشبههم، أو تحوّلوا كي يشبهوا تلك المجموعات البشريّة الغارقة في أعماقها بالفراغ.

راقب جيرانه في الأيّام الأولى للثورة، سمع مجموعة شائعات كبيرة ومدهشة من المستحيل تصديقها، بثّها الجميع على أنّها حقائق، دهشته كانت تتعاظم حين يرى على شاشة التلفزيون الرسمي مجموعة رجال لديهم ألقاب علميّة، يحلّلون ويؤكّدون هذه الشائعات، وسط بهجة المذيعات ومقدّمات البرامج المتبرّجات والواثقات بالنصر القادم. لم يكن يحتمل هذه التحليلات الّتي تقول بأنّ المتظاهرين خرجوا إلى الشوارع تحت تأثير الحبوب المخدّرة، أحد المحلّلين شرح لمدّة ساعتين أنّ حكومة بلد رجعي لم يسمّها تدفع خمسمئة ليرة وسندويش كباب لكلّ متظاهر من أجل تنفيذ المؤامرة وقلب نظام الحكم. من السهل تحويل القطيع المؤيّد بعماء إلى أيّ مكان تريد له أن يكون. أسئلة بلبل كادت تخنقه، والأكثر تأثيراً بالنسبة إليه كان الخوف الّذي ازداد وتغلغل في أعماقه، شعر مرّات عديدة بحاجته الماسّة للحديث مع لميا والبوح لها بأنّه حين يخرج إلى الشارع يشعر بأنّ جيرانه سيغتصبونه، تحاشى حتّى النظر إلى النوافذ المفتوحة، ولم يعد هاجس التلصّص الّذي مارسه بمتعة سنوات عديدة يعنيه في شيء. الطريق ليس طويلاً من منزله إلى ساحة الحارة، أقلّ من خمسين متراً، ينتظر باص المؤسّسة في مكان ثابت، يعود بعد انتهاء الدوام لينزل من الباص نفسه في النقطة ذاتها. أيّام العطل يعتزل الحياة في منزله، يفتح النوافذ كي لا يشكّ الجيران في تدبيره مؤامرة، يشعر بإرهاق فظيع في الدفاع عن نفسه،



يتخيّل أنّ الجميع يراقبونه، في الوقت نفسه لا قدرة ولا طاقة لديه لتغيير مكان سكنه، من سيؤجّر منزلاً لرجل هويّته تُعدّ جريمة، لا يستطيع العودة للعيش في بلدة «س» الّتي وُلد فيها، لا يحتمل النظر في عيون الناس الّذين لم يستطع الدفاع عنهم، حين شتمهم جيرانه البؤساء علناً وبصوت عالٍ، مرّات عديدة أخفى انتماءه، واخترع قصصاً عن خطأ الولادة في ذلك المكان.

والآن ها هو يسير منكّس الرأس مع عشرين شخصاً ليتعلّم الصلاة بقوّة السلاح، يتوضّأ بماء بارد ويعيد التعليمات وراء شخص مقنّع يعلّمه الوضوء، يشعر بعبث فظيع أثناء اصطفافهم وراء الشخص الّذي يشرح لهم خطوات الصلاة، كلّ شيء عبث... بعد الصلاة ماذا سيفعلون بهم؟ يقتلونهم؟ يبادلونهم مقابل فدية؟ يستعبدونهم؟ بلبل غير مهتمّ على الإطلاق، الشيء الأكيد بالنسبة إليه، أنّ جثّة أبيه في هذه الساعة قد أصبحت تحت التراب، تعانقت مع عظام أخته الحبيبة الّتي بقيت صورتها محترقة تقضّ مضجعه إلى يومه الأخير، لم تتركه يوماً دون تذكيره بجبنه، عدم دفاعه عنها جعله شريكاً في انتحارها، واختيارها الحرق على سطح المنزل يوم عرسها رسالة واضحة للجميع، لن تسامحهم. كانت تستطيع الانتحار بطرق شتّى، لكنّها تريد لحكايتها أن تعيش، لن يستطيع أحد اختراع حكايات مختلفة، عن حقيقة اختيارها الموت على العيش مع رجل لا تحبّه.

بعد صلاة المغرب بقليل دخل السجّان وطلب من بلبل اللحاق به، سار وراءه دون سؤال، اقتاده إلى غرفة الرجل الّذي سمّى نفسه قاضياً شرعيّاً، كان عمّه نايف بانتظاره، وقّع على أوراق تعهّد فيها بتعليمه أصول الواجبات الدينيّة، قبّله عمّه واحتضنه وقدّم تعازيه المتأخّرة، اصطحبه من يده وخرجا، كانت سيّارة ابن عمّه تنتظرهما. كان الجميع ينادونه باسمه الأصلي نبيل الّذي نسيه. أعجبته كثيراً



استعادة اسمه الأصلي، قرّر في أعماقه أنّه لن يسمح لأحد بمناداته بلبل، حلّ الصمت ثقيلاً في السيّارة، لم يسأل بلبل أيّ سؤال، كان عمّه يتبادل النظرات مع ابن عمّه، أخفيا عنه خرس فاطمة، يتساءلان حقيقة عن جنونه. عيناه الزائغتان، يداه المرتجفتان، جسده الّذي يختلج، كلّ شيء يدلّ على أنّ شيئاً غير طبيعي حدث معه في الليلة الفائتة، فهم بلبل معنى نظراتهم، طمأنهم أنّ البرد القارس هو السبب، وسيستعيد عافيته بعد قليل. حين وصل إلى العزاء، تجدّد بكاء النسوة، هرعت فاطمة نحوه باكية واحتضنته، حاولت للمرّة الأخيرة استعادة صوتها، ازداد بكاؤها حين اكتشفت عدم قدرتها على الكلام، تمكّن الخرس منها تماماً. كان وصول بلبل مؤثّراً، شعر بامتنان كبير لوجوده بين هؤلاء الناس القادرين على حمايته. مضى زمن طويل على مغادرتهم دمشق، تمنّى لو أنّه أصيب بالخرس بدل فاطمة، لقد حسدها على صمتها الأبدي.

شعر بألم من تجاهل حسين له، اكتفى بكلمات قليلة سأله فيها إن كانوا عذبوه أو تحرّشوا به، لم يفهم معنى لسؤال حسين عن التحرّش سوى كراهيته العميقة له، فاكتفى بإشارة تنفي ذلك، عاد بعدها إلى صمته، وإلى النظر إلى زاوية بعيدة في المضافة الكبيرة الدافئة. لقد استحمّ بماء ساخن، أعطاه ابن عمّه بيجاما نظيفة، تناول عشاءه مع الجميع، لكنّه احتفظ بصمته، التعاطف يحيط به من كلّ جانب. حين تمدّد في الفراش الدافئ هاجمته الكوابيس، شعر بنفسه معلّقاً في سقف الغرفة الواسعة، يطير في مكان ضيّق، يعبر الحدود القريبة، ويبدأ حياة جديدة. رغم الكوابيس استطاع النوم ساعات قليلة، استيقظ فجراً، لم يحاول الاستسلام لدفء الفراش، نهض وسار مع ابن عمّه إلى المقبرة، كتم غيظه حين رأى قبر أبيه بعيداً عن كلّ القبور، لم يُدفن في قبر أخته ولم تكتمل الوصيّة، كما



لم يُدفن قريباً من أمّه أو جدّته، كان قبراً منفرداً في زاوية بعيدة من المقبرة، عاش بعيداً ويجب أن يُدفن بعيداً، لكنّه في النهاية لديه قبر، وليس شيئاً تافهاً أن يكون لك قبر. لم يطل المكوث، اكتفى بنزع بعض الأعشاب اليابسة عن قبر أمّه، وشعر بحزن شديد، لن يستطيع إخبارها أنّها لم تكن تعني شيئاً لأبيه، مجرّد زوجة، كلّ ما قيل عن الحبّ العميق الّذي يربطهما كان أكذوبة لم يجرؤ أحد على تكذيبها، فالأحياء يجب أن يستمرّوا بسرد قصص الأموات المنافقة. لم يحتج أو يناقش ويتساءل لماذا دفنوه في هذا المكان بعيداً عن أحبّته، فكّر في ما بعد أنّ القبر البعيد هو القبر الحقيقي الّذي يليق بأبيه، عمّته لم تكن ترغب في مشاركة أحد من عائلتها قبرها، تريد قبراً متفرّداً لا أحد يجرؤ على النوم فيه سواها. أسطورتها تكبر يوماً بعد آخر، تثير المخيّلة وتباعد المسافة بينها وبين الأحياء، كثيرون فكّروا في نقل القبر أو تهديمه لكنّ أحداً منهم لم يجرؤ على فعل ذلك، حتّى نايف أخوها، آخر الشهود، لم يجرؤ، وطلب من الجميع الاكتفاء بالنسيان. الحكاية ستبقى، وأيّ محاولة لطمسها ستعيد إشعالها من جديد، يجب ألّا تتحوّل ليلى إلى وليّة وشفيعة للعشّاق، يجب تركها ترقد في النسيان بهدوء، دون اكتراث، في قبر مهمل ودون شاهدة.

في صباح اليوم الثالث لوصولهم إلى العنابيّة، قرّر بلبل قطع الحدود إلى تركيا، رافقه أحد أبناء عمومته لتوصيله إلى الحدود ومساعدته. كان الحشد رهيباً على معبر السلامة، آلاف من البشر ينتظرون عبور الحدود إلى تركيا، فكّر بأنّ رغبته في بدء حياة جديدة غير حقيقيّة، إنّه عاجز حتّى عن فعل هذا. الحياة الجديدة تعني مجهولاً جديداً، تحتاج إلى قوّة، عاد إليه خوفه، اشتاق إلى بيته، وتلك اللحظات المكرّرة في مكتب وظيفته، مخلّلاته وخوفه من الفاشيّين الّذين يرفعون البنادق ويريدون حرث درعا وزراعتها بطاطا. شعر ابن



عمّه بحيرته، تغيّرت ملامح وجهه، ساعده على العودة والتفكير مرّة أخرى، سحبه من ذراعه وأصبح متيقّناً من فقده لعقله، لا يمكن تركه يعبر الحدود، ملامح وجهه الصامت تشير إلى عدم احتمال مسؤوليّة قراره. في طريق العودة إلى العنابيّة، طمأنه بأنّهم يستطيعون مساعدته في عبور الحدود إلى تركيا في أيّ لحظة يريدها.

فجر اليوم الخامس رافقهم أبناء عمومتهم إلى أطراف حلب، كانت الحواجز تُفتح أمامهم، كان العبور سهلاً. ودّعوهم عند آخر حاجز قبل انعطافهم في طريق العودة، شعروا بالراحة والخفّة، نفّذوا الوصيّة ولا يحملون جثّة. خيّم الصمت الطويل على ثلاثتهم، اكتفت فاطمة بالنوم طوال الطريق، لم تعد قادرة على الكلام والعتاب، هي أيضاً تريد العودة إلى منزلها، وحسين وبلبل تبادلا التجاهل.

على بوّابة دمشق الّتي وصلوها مساءً، نزل بلبل ورفع يده مودّعاً حسين دون أيّ كلمة، أعجبه صمته خلال الأيّام الخمسة الماضية، حارته ليست بعيدة، سار على أوتوستراد كورنيش التجارة وسط الظلام، فتح باب منزله في التاسعة مساءً، كانت رائحة أبيه تفوح في كلّ زوايا البيت وتزكم أنفه، أغلق الباب، وجلس وسط الظلام، شعر بأنه وحيد أكثر من أي يوم مضى، قرّر أنّه لن يسمح لأحد بمناداته سوى باسمه الأصلي، نبيل... شعر برأسه تنهشه تلك الكلاب التي هاجمتهم، إنّه الآن جيفة أيضاً، نهض ووضع رأسه تحت صنبور المياه الساخنة. أراد رؤية ذوبان ملامحه وتلاشيها. استمر صمته طوال الليل، سار نحو غرفة النوم، اندسّ في فراشه، وشعر بأنّه جرذ كبير يعود إلى جحره البارد، كائن لا لزوم له ومن الممكن التخلي عنه ببساطة.

دمشق – مالطا

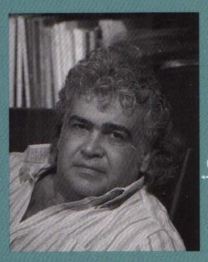
صيف 2013 – صيف 2015



الموت عمل شاقّ — سيّارة تشقّ طريقها من الشام إلى العنابيّة. في داخلها جثّة، ورجلان وامرأة، يلفّهم صمت متوجّس، وفي الخارج حرب ضارية لم تشبع بعد من الضحايا.

حواجز كثيرة سيكون على هذه العائلة اجتيازها على الأرض لتنفيذ وصيّة الأب بدفنه في تراب قريته، وحواجز أخرى نفسيّة بين الأحياء الثلاثة، اجتيازها ليس أقلّ صعوبة.

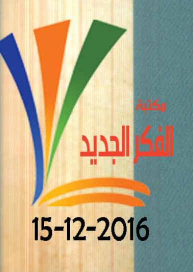
هذه ليست رحلة لدفن جثمان أب، بل هي رحلة لاكتشاف الذات، وكم أنّ الموت عمل شاقّ. إنّها رواية عن قوّة الحياة، لكنّ الموت هنا ذريعة ليس أكثر.



© أيهم ديب



خالد خليفة — مؤلّف «لا سكاكين في مطابخ هذه المدينة» (2013) التي وصلت إلى القائمة القصيرة لجائزة البوكر العربيّة وحازت جائزة نجيب محفوظ لعام 2013، وتُرجمت إلى ثلاث لغات حتّى الآن. وهي الرواية الرابعة للكاتب السوريّ بعد «حارس الخديعة» (1993)، «دفاتر القرباط» (2000)، و«مديح الكراهية» (2006) التي تُرجمت إلى ثماني لغات أجنبيّة، ووصلت إلى القائمة القصيرة لجائزة البوكر العربيّة كذلك. للكاتب أيضاً عدد من المسلسلات التلفزيونيّة منها «سيرة آل الجلالي» (1999) ومسلسل «هدوء نسبي» (2009).




ISBN 978-614-438-505-0

نوفل هي دمغة الناشر

هاشيت أنطوان